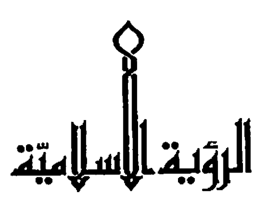
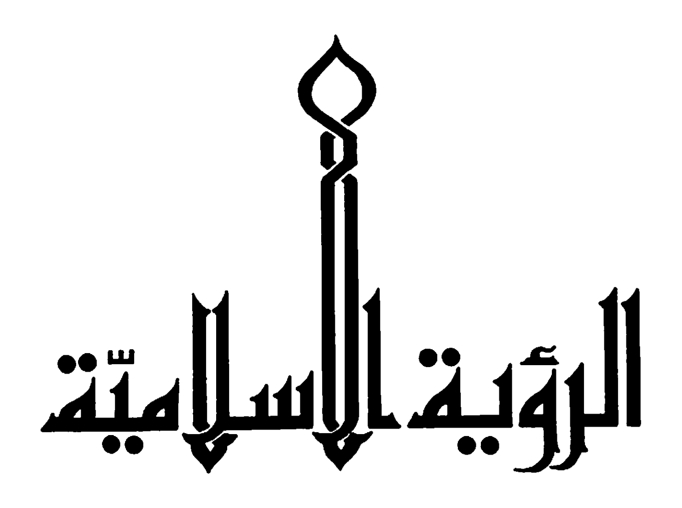
الدكتور عماد الدين خليل

الرؤية الإسلامية




الرؤية الإسلامية

الدكتور عماد الدين خليل





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

تختلف نظرة الأناسي في الحياة باختلاف تصور كل منهم فمن الناس من يرى أن الحياة مادة ومنهم من يراها مثلاً روحية والمسلمون يرونها مادة وروحاً مادة يجب تطويعها لخدمة الإنسان وروحاً يجب السمو بها ليسعد الإنسان ولو سادت الأفكار المادية في الحياة لحلت شريعة الغاب محل شريعة الحق والعدل ولشقي الضعفاء واصطرع الأقوياء وامتهنت الكرامة وعم الشقاء والجهالة من هذا المنطلق تختلف النظرة إلى الشيء الواحد بين إنسان وإنسان فرؤ ية المسلم إلى حدث من الأحداث أو ظاهرة من ظواهر المجتمع غير رؤ ية المادي إليها .

رؤية المسلم تقوم على الإنسجام مع تعاليم الله التي تهدف إلى سعادة الإنسان وتقوم على الجد والعمل والإنتاج لراحة الإنسان وعلى التضحية في سبيل اسعاد الضعفاء والمحرومين وفي سبيل تحرير الأوطان ليعيش المسلم حراً كريماً . لذا كان طبيعياً أن تكون الرؤية الإسلامية رؤية موضوعية غيرية تهدف إلى رضاء الله تعالى بإسعاد بني الإنسان والدكتور عماد الدين ممـن يرى رأي الإسلام والحمد لله .
لذا نجده في هذا الكتاب ينظر إلى الأحداث نظرة الطبيب الفاحص

يشخص الداء ويصف الدواء من صيدلية الإسلام وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذ يقول « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » فمن وضع على عينيه نظارة خضراء شاهد كل شيء في الحياة من خلالها أخضراً وإن وضعها حمراء شاهد كل شيء احمراً وإن وضع على عينيه نظارة مادية شاهد كل شيء في الحياة مادياً وإن وضعها إسلامية شاهد كل شيء من خلالها من منظور الإسلام والسلم والسلام .

دار الثقافة

محمد سعيد مبيض

في مقدمة كتاب « مؤشرات إسلامية في زمن السرعة [1]» وردت الملاحظة التالية ؛ « في زمن السرعة والإختزال والتركيز ، يتحتم علىٰ المفكر المسلم ، إلىٰ جانب ابحاثه المنهجية الشاملة ، أن يطرح رؤاه ومواقعه واحكامه وتحليلاته ، عبر صيرورة الحياة المتدفقة ، مركزة مختزلة ، بمقالات أو ربما بكلمات قصار ».

وفي مقدمة كتاب « آفاق قرآنية »[2] الذي سبقه في الصدور ، ترد الملاحظة التالية ؛ « ثمة في حياة المسلم المعاصر أحداث وتجارب وعلاقات وقيم وآراء ومبادىء واتجاهات ووقائع ونزعات . . يتحتم عليه أن يقف إزاءها، بين الحين والحين ، لكي يسلط عليها ، من زاوية رؤياه الإسلامية ، لتحليله وفحصه وإختباره ، ويصدر حكمه ، ويتخذ ـ من ثم ـ موقفه . . ».

وتُختتم المقدمة بالإشارة الى أن الكتاب يتضمن رصداً « العشرات

---

(١) مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٨٤ م .

(٢) دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٧٩ م .

من التجارب والقيم والوقائع ، مما يعرض في حياتنا اليومية الراهنة ، أو في ساحات الفكر والعقيدة . . » إلىٰ آخره . .

فإذا كان كتاب (آفاق قرآنية) قد رصد تجارب ومواقف ووجهات نظر عبر أواخر الستينات وبداية السبعينات ، وإذا كان كتاب «مؤشرات» قد واصل الطريق عبر السبعينات، فإن هذا الكتاب الذي يجده القارىء بين يديه يجيء مكمِّلاً لصنويه فيرصد بعض ما يستحق المتابعة والتعقيب مما تجمع لديَّ في مطالع الثمانينات .

مرة أخرى ، يبدو المقال الموجز ذو الصفحتين والثلاث ضرورياً في زمن السرعة ، والتكاثر ، والوقت المحدود ، شرط أن تتضمن هذه المقالات قدراً من التصاميم الذهنية ، وتُتابع التجربة أو الخبرة بالتركيز المطلوب الذي يلم بأطراف المسألة بأكبر قدر من الاقتصاد في اللغة دون إغفال لجمالياتها بطبيعة الحال .

استميح القارىء عذراً إن اخطأت أو قصّرت ، وانتظر منه تسديد الخطأ والإرشاد الى الصواب . . . وإلىٰ الله وحده نتوجه بالأعمال .

الموصل : عماد الدين خليل .

الحضـارة فعل لا نقـل

نحن الآن ،وكما يقال ، في سباق حضاري مع الغرب . .

هم يسبقوننا بنصف قرن ، كما يقال ايضاً ، ونحن نحاول أن نختزل هذه المسافة الزمنية بجهد مضاعف لكي نلحق بهم ونتفوق عليهم . .

هذا كله صحيح . . بل هو ضرورة من الضرورات التاريخية بالنسبة لكل أمة حية تسعىٰ لأن يكون لها مكان محترم في هذا العالم ، وإلىٰ أن تتحقق بالشروط اللازمة لهذا الإحترام . . وإلاّ لما شهد التاريخ تلك المسابقات الحضارية المتواصلة بين الأمم والشعوب ، وذلك التغير المستمر في المواقع المتقدمة ، تارة لهذه الأمة المتقدمة وحيناً لتلك . . وتارة لهذا الشعب وحيناً لذاك ، قياساً علىٰ مدىٰ القدرة التي تبذلها أمة ما من الأمم ، أو شعب ما من الشعوب ، للأسراع في الوصول إلىٰ خط النهاية واحتلال الموقع المتقدم ذاك . .

والأمم التي لم تبذل الجهـد الكافي ، أو تقدم الحد الأدنى علىٰ الأقل ، فإنها لن تبلغ هدفها أبداً ، بل إنها ستخرج منذ التصفيات

الأولىٰ للسباق الحضاري ، ولن تتاح لها حتىٰ فرصة الإشتراك فيه .

وهنا يبرز السؤال الذي ينتظر جوابه الصريح : ترىٰ هل أن محاولتنا الراهنة للفوز بالسباق استكملت اسبابها حقاً ؟ وهل انطلقنا عند خط البداية علىٰ الخطوط المرسومة للوصول إلىٰ الأهداف ؟

يكون المرء منافقاً لو أجاب بالإيجاب ، أو علىٰ أقل تقدير ـ جاهلاً ، قصير النظر ، غير قادر على فهم واستيعاب مجريات الأحداث التي تتمخض أمام عينيه ، ولابد من الاعتراف بهذا الخطأ الكبير الذي ظللنا نمارسه منذ أكثر من نصف قرن ولا نزال . . لابد من الإعتراف من أجل ألاّ نضيّع فترات اخرىٰ من الزمن ونهدر طاقات وقدرات اخرىٰ . . ونعطي الفرصة للغرب كي يبعد عن مواقعنا الحضارية ويحلّق في السماء السابعة ونحن لا نزال نتخبط في البرك والمستنقعات .

وإذا أردنا أن نشخّص السبب الرئيسي الذي قادنا إلىٰ هذا الخطأ ، وضيع علينا هذا الذي ضيّعه لوجدناه يكمن في عبارة واحدة : لقد فهمنا الملاحقة أو التنافس الحضاري علىٰ أنه نقل عن المتفوقين وليس فعلاً يتحتم أن نمارسه بعقولنا وخبراتنا وأيدينا ، وأن نصوغه من عقيدتنا ورؤيتنا وإيماننا الخاص .

إن مدننا تشهد ـ كما قال بعض المعلقين ـ « ثورات كونكريتية » . . شوارع فسيحة ، تطل عليها عمارات أنيقة شاهقة كتلك التي تطل علىٰ شوارع نيويورك ولندن وباريس . .

وأن دورنا تشهد تراكماً في مقتنياتها الصناعية الحديثة ، من

الثلاجة ، إلىٰ المجمّدة ، الىٰ التلفزيون ، إلىٰ الغسّالة الفول أوتوماتيك إلىٰ الفديو . . إلىٰ آخره . . وهي مقتنيات صنعت في الغرب ، أو أن اجزاءها صنعت هناك ولم نفعل نحن سوى أن ربطنا هذه الأجزاء .

وان مؤسساتنا تشهد اعتماداً متزايداً علىٰ آخر المبتكرات التقنية ، بدءً بالمصانع الميكانيكية وانتهاء بالمحاسبات الألكترونية والروبوت . .

ولكن هذا كله لم يجعلنا نقف على قدم المساواة مع الحضارة الغربية ، بل الغربية ، بل إنه لم يقرب المسافة الحضارية بيننا وبينهم ولو شبراً واحداً . .

ظلت هذه المسافة كما هي ، بل إنها اغلب الظن زادت اتساعاً . . لماذا ؟ لأن كل ما فعلناه هو أننا نقلنا بعض معطيات الحضارة الغربية نقلاً شيئياً أو تجارياً صرفاً ، وجعلناها تتراكم في مدننا ودورنا ومؤسساتنا دون أن يكون لدينا احياناً حتىٰ الكوادر البشرية القديرة علىٰ استيعابها وتشغيلها . . .

ووقعنا عند هذا الحد ؛ النقل عن الثمار المادية للحضارة الغربية . . . وهذا وحده لا يكفي . .

صحيح أنه يعد ، في مرحلتنا الراهنة ، ضرورة من الضرورات الملزمـة ، لكنه بحدِّ ذاته أي بالوقوف عنده دون اتخاذ الخطوة الأخرى التي توازيه وتحتويه ، لن نكون قد فعلنـا شيئاً . .

قد نتحقق بالرفاهية المادية . . ولكننا لن نتحقق بشروط السباق الذي يمكننا من منافسة الآخرين . . بكل تأكيد . .

والخطوة المطلوبة هو أن نعكس المقولة الخاطئة ، فندرك أن الحضارة فعل وليست نقلاً . .

وهذا الفعل الذي يتحتم أن يتميز بالأصالة والذاتية وقوة الشخصية ، لا يتشكل في الفراغ أو ينبثق في الفراغ . .

لا بد أن تكون هناك عقيدة دافعة ، وإيمان محفّز ، ورؤية شاملة ، وأهداف محددة ، وخصوصية متميزة .

ومن اين نأتي بالعقيدة ، والإيمان ، والرؤية ، والهدف ، والخصوصية ، إن لم نستمدها من الإسلام نفسه . . الإسلام الذي صنعنا وحضّرنا أول مرة وهو قادر أبداً أن يعيد صنعنا وتحضيرنا ؟!

الإسلام الذي نفخ فينا يوماً روح العمل ، والفعل ، والإنجاز ، ومنحنا الشروط اللازمة ، ودفعنا لركض المسافات الطوال ، ومكننا من كسر الأرقام القياسية ، وصولاً إلىٰ خط النهاية ، والتفوق ، والشهادة علىٰ الأمم والشعوب والحضارات ؟

إن أية محاولة لاعتماد عقيدة اخرىٰ غير عقيدة الإسلام سوف تجعلنا نظل حيث نحن ، لأننا سنمارس حينذاك خطيئة مزدوجة . ففي حالة النقل الشيىء كنا نأخذ عن الغرب ما يبتكره من اشياء ، وهذه مسألة ذات طابع حيادي ، قد لا تفعل بأكثر من جعلنا نلهث وراء الغرب باستمرار . .

أما في هذه الحالة فإننا ننقل عنه أفكاراً قد تتضمن الكثير من الأخطاء والإنحرافات ، أو أنها ، في أحسن الأحوال ، تحمل قيماً مغايرة تماماً لقيمنا ، مرتطمة بها ابتداء ، الأمر الذي قد يقود ، أو هو

قاد فعلاً إلىٰ هذا الدمار الذي نعانيه ، وإلىٰ هذا التزايد المحزن في المسافة الفارقة بيننا وبين الغربيين .

ترىٰ . . الم يأن الآوان بعد للتفكير جدياً بهذه المسألة ، والإنطلاق ثانية من خط البداية ونحن نمتلك الشروط التي تمكننا من قطع المسافات الطوال؟!

معاول أخرىٰ في جدار الألحاد . . .

يوماً بعد يوم يتزايد التكشف المذهل لآيتين معجزتين في كتاب الله تتضمنان بعداً زمنياً يشير إلىٰ أن « مرور » الأيام والسنين والقرون سوف يحقق مزيداً من الكسب لمواقع « الإيمان » في العالم ، والخسران والإندحار لمنابع الكفر والإلحاد ، هنالك حيث تتعرىٰ سنن الطبيعة وحقائق الحياة ونواميس الوجود لكي تدلّ بما لا يقبل أية لجاجة أو اعتراض علىٰ خالقها الواحد ، المبدع ، واحب الوجود ، سبحانه .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾[1].

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد ﴾[2].

ففيما بين شهري نيسان «إبريل» وتموز «يوليو» من العام الماضي كان بمقدور القارىء العربي «علىٰ الأقل» أن يضع يديه علىٰ ثلاثة أنباء وردت في عدد من الصحف والمجلات العربية ، وهي جميعاً

---

(١) سورة يونس آية ٣٩.

(٢) سورة فصلت آية ٥٣.

تؤكد ، بمنطق صارم واضح كنور الشمس ، هذا الذي ذهبنا إليه

احدى الصحف الخليجية الصادرة في نيسان تطرح تحت هذا المانشيت « شارلز دارون ؛ هزيمة جديدة لنظرية دارون وعالم يعترف بأنه زوّر وثائق لإثبات نموّ المخ !» النبأ التالي ؛ « شارلز دارون صاحب نظرية التطور التي تدعي بأن القرد أصل الإنسان يواجه هزيمة جديدة في الولايات المتحدة . فبعد القرار التاريخي الذي اصدرته محكمة لوس انجلوس في ولاية نيويورك في مطلع هذا العام ضد نظرية التطور ، والثغرات العديدة في استنتاجاتها ، والتوصية بأن يتم في المدارس تدريس الحقائق الدينية عن خلق الإنسان وإضافة فقرات الىٰ منهج دارون بأن نظريته افتراضية ، دخلت ولاية اركنساس ايضاً في الصراع ضد دارون وبدأت المحكمة في نظر دعوىٰ مماثلة ضد نظرية التطور. . . ».

الدكتور محمد جابر الإنصاري يترجم عن الفرنسية « المحاورة الأخيرة بين سارتر ودي بوفوار »[1] حيث يرد هذا الإعتراف الخطير علىٰ لسان سارتر زعيم الوجودية الملحدة ؛ « أنا لا أشعر بأني مجرد ذرة غبار ظهرت في هذا الكون وإنما أنا ككائن حسّاس تم التحضير لظهوره وأحسن تكوينه أي بإيجاز ككائن لم يستطع المجيء إلاّ من خالق ».

ويعقب الانصاري ؛ « هذه العبارة تنسف فلسفة سارتر الإلحادية من الأساس » ثم يختم مقاله بهذه الكلمات ؛ « وبعد ؛ فهذا هو

(١) مجلة الدوحة عدد ٧٧ مايو ١٩٨٢ .

موقف سارتر في ساعة الحقيقية من الفلسفة ومن فلسفته الوجودية وكتبه الفلسفية التي كانت غذاء فكرياً هاماً لبعض مثقفينا قبل هزيمة حزيران ، والتي ما يزال البعض يكتب حتىٰ الآن تحت تأثير منطلقاتها العبثية ».

ثم ها هو الدكتور احمد أبو زيد يذكر في مقال له بعنوان « هل مات دارون حقاً »؟[1] كيف أنه صدر في انكلترا « منذ شهور قليلة وفي أواخر عام ١٩٨١. كتاب يحمل عنواناً طريفاً هو (التطور من الفضاء Evolution Fro, Spqce أقام بتأليفه عالم الفلك الشهير سير فريد هويل (Sir Fred Hoyle) وعاونه في ذلك استاذ هندي يدرس الرياضيات في جامعة كارديف . ويعترف الأستاذ أن بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان ولا ينتميان لأي دين أو عقيدة ، وأنهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب بأسلوب علمي بحت ومن زاوية عقلانية خالصة لا تحفل ولا تتأثر بأي موقف ديني . ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود حياة علىٰ الكواكب الأخرىٰ ، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات الأخرىٰ ، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عن ظهور الحياة تلقائياً من الوُحل الأولىٰ Prineval Soup نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية .

ومع أن هنالك نظريات معارضة لهذا الاتجاه وهي نظريات ترىٰ أن احتمال ظهور الحياة من هذه الوحل أو الطين الأولىٰ لا تزيد عن ١٠,٤ ،١٠. فإن هويل يرىٰ بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة ،

---

(١) مجلة العربي عدد ٢٨٤ تموز ١٩٨٢.

أن هذا الاحتمال لا يزيد بحال عن ١ ؛ ١٠. . . . و،٤ أي واحد إلىٰ عشرة ، أمامها أربعون الف صفر ، مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة لظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين ، وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون نشأت عن طريق الصدفة البحتة وأنه لابد من وجود عقل مدبِّر يفكر ويبدل لهدف معيَّن. وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح ـ كما قلنا ـ بالحادهما فإنهما لا يجدان أمامهما مفراً من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان (الله ـ God).

هل ثمة من داعٍ لتوضيح ، أو حتىٰ للتعليق ، علىٰ الأنباء الثلاثة سوىٰ أنها معاولُ اخرىٰ تشهدها العقود الأخيرة من هذا القرن ، من بين عشرات ومئات ، وهي تنقض لكي تفتح الثغرات في جدار الإلحاد الأصمّ ، القاتم ، فتمنح الإنسان المعاصر الذي يغوص في الظلمة ، فرصة أكبر لمعانقة نور الله ، والخروج من ضيق الدنيا الىٰ سعتها!؟

المهم أن يكون عدوّاً للإسلام

لا يملك المرء إلا أن يحار ويدهش وهو يقرأ لبعض كتاب مصر الذين يطلقون على أنفسهم « التقدميين».

إذ كيف يبيحون لأنفسهم أن يكيلوا الثناء والتقدير لعناصر رجعية ، إذا استخدمنا مقاييسهم هم ، لعبت دوراً سلبياً في مسار الفكر الحديث ، في هذا الجانب أو ذاك ؟ كيف يبدون اعجابهم لرجال وقفوا مع الإستعمار ضد التحرير ، ومع العدو ضد الأخ والصديق ، ومع السلطة ضد الشعب ، ومع الغزو الفكري ضد الأصالة ومع الإقليمية ضد العروبة والإسلام ؟

اننا ونحن نقرأ لحشد من هؤلاء الكتاب الذين تناولوا الحياة الفكرية والأدبية في مصر عبر النصف الأول من هذا القرن ، نجدهم ، رغم عدم قدرتهم على تغطية هذه المثالب المضادة للفكر التقدمي ، بل رغم اعترافهم بها أحيانا ، يترددون في شن هجومهم على أصحابها ، أو مسّهم بالنقد على الأقل . . بل يترددون حتى في توجيه لوم هادىء للمواقف الخاطئة التي اتخذوها ، والمواقع الفكرية التي

تشبثوا بها ، ليس بإرادتهم واختيارهم ـ اغلب الظن ـ وإنما بتوجيه والزام من الجهات التي آلوا على أنفسهم أن يرتبطوا بها لأنها تعدهم وتمنّيهم . . . والتقدميون يعرفون هذا جيداً !

هنالك نماذج كثيرة ، لكننا نختار واحداً منها قد يغني عن الصفّ الطويل ، لأن جلّ من فيه لا يعدو أن يكون تكراراً نمطياً يتخذ الموقف نفسه ، ويصدر عن الرؤية ذاتها ، وتحركه الدوافع التي حركت الآخرين . . « احمد لطفي السيد ».

و«أحمد لطفي السيد» بالذات كان معروفاً عنه كراهيته للعنف ، ودعوته الملحّة لمقاومة الاستعمار بنشر التعليم ، وأن هذا هو السبيل الوحيد لطرده من مصر ... ومعروفاً عنه كذلك انتماؤه للطبقة الإقطاعية ، وموالاته للملك ، ونزعته الإقليمية التي تقف نقيضاً تجاه كل ما هو عربي أو إسلامي .

ومع ذلك كله ، فإن الأقلام التقدمية التي أرّخت للحقبة كانت تكيل له المديح والثناء باعتباره واحداً من روّاد التحرر والعلمانية ! هذه الأقلام التي ادعت أنها اشهرت سلاحها بوجه الملكية والظلم والإستعمار والديمقراطية المزيفة والإقليمية . . تجد نفسها تجاه رجل يمثل هذا كله، عاجزة عن توجيه النقد والتعنيف الذي صبّته على رؤوس آخرين قد يكونون أقل بكثير من « أحمد لطفي السيد » ملكية واقطاعية وإقليمية ومهادنة للاستعمار!

وهؤلاء الكتاب التقدميون الذين اسرتهم في الربع الثالث من هذا القرن ، هواية التفسير الطبقي للتاريخ ، والمجتمع ، والسياسة ،

والثقافة . . واستعبدتهم اسطورة الشرائح الإجتماعية ، واعتقدوا أن تطمين المصالح هي الدافع والمحرك والهدف لكل نشاط انساني ، وقسموا المجتمع المصري الىٰ طبقات وفئات ، وفسروا سلوك كل منها اعتماداً علىٰ ما تملكه من مال وما تتضمنه جيوبها من نقود .

هؤلاء الكتاب عندما يقفون أمام رجل «كأحمد لطفي السيد»، يكفّون عن صراخهم ويترددون في تقديم استنتاجاتهم الرتيبة التي يأخذها الواحد منهم عن الآخر والتي كادت أن تصبح تقليداً ثقافياً يحكم بالنفي علىٰ كل من يتجاوزه أو يقف لكي يقول رأياً مخالفاً لمعطياته الجامدة كالصخر ، الباردة كالجليد .

ورغم أن «لطفي» ينتمي إلىٰ طبقة الإقطاعيين ، ويعمل في حزب يتبنىٰ مصالحهم ويدافع عنها ، فإنه لا يتلقىٰ الهجوم والنقد الذي كان يتلقاه بكثافة رجال كانوا أبعد بكثير عن طبقة الاقطاع ، وأقل ملكية بكثير من الرجل إياه . . بل إن بعضهم كان ينتمي لأحزاب تنبثق من قلب الشعب وتدافع باخلاص عن قضايا الجماهير بمواجهة الاقطاع والسلطة والإستعمار .

ويجد المرء نفسه مضطراً للتساؤل عن دوافع هذا اللغز المحير . . عن الأسباب التي تكمن في هذا التناقض الذي يوقع الكتاب التقدميين انفسهم فيه ؟

وقد لا يجد بعد بحث طويل مدعم بالأدلة المقارنة والوقائع ، ومستند الىٰ معطيات هؤلاء الكتاب أنفسهم ، سوىٰ جواب واحد قد يمنح الإنسان القناعة المفقودة ، وهذا الجواب يتمثل بعبارة واحدة ، لكنها تعني الكثير ، وتفك الطلاسم والألغاز وتلك هي ؛

ليس مهماً موقع الرجل في خارطة الفكر والممارسة ، ولكن المهم أن يكون عدوا للإسلام ، مسخراً بأيدي خصومه !!

بروتوكولات صهيونية .. مرة اخرىٰ

منذ زمن بعيد ، عندما كان احدنا يطالع في كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » المعروف ، فإن الشعور الذي كان ينتابه هو لاحساس بالمبالغة التي قد تتجاوز حدود المعقول ، ويتصور بأن الحكماء » يتعمدون هذه المبالغة لتحقيق غرض ما في نفوسهم فقد كون صيغة من صيغ الحرب النفسية ، وقد تكون البروتوكولات في طارها العام بمثابة حلم أو تخيُّل لما يتمنى يهود العالم تحقيقه بأي سلوب!

وبمرور الوقت أخذت الوقائع التي راحت تزداد كثافة يوماً بعد يوم ؤكد بعض ما قاله الحكماء في مقرّراتهم السرِّية تلك ، وكأنها ـ أي وقائع ـ تجيء بمثابة انطباق هندسي باهر بين المقولة وبين التنفيذ .

ليس هذا مجال الحديث عن «البروتوكولات» التي اشبعت بحثاً تحليلاً منذ ظهورها حتىٰ الآن . ولكني احب ان اقف ، لحظات ، ند واقعة تلفت نظر من يطالع مذكرات الشاعر التشيلي المعروف ؛ بلو نيرودا .

يقول الرجل « لقد تعرفت في الباخرة ـ المبحرة إلىٰ الشرق

الأقصىٰ ـ علىٰ فتاة يهودية تدعىٰ « كروزي » شقراء ، سمينة شيئاً ما . . قالت لي أن لها منصباً جيداً في باتافيا . . اقتربت منها في الحفلة الأخيرة للرحلة البحرية ، بين كأس وكأس كانت تجرني للرقص . في هذه الليلة الأخيرة قررنا أن نمارس الحب في غرفتي بشكل ودي . . اعترفت لي كروزي من جهتها بالعمل الحقيقى الذي كان ينتظرها في باتافيا . كان ثمة منظمة فلندعها دولية (!) كانت مهمتها هي أن تشبك فتيات أوربيات في اسرّة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو القاب مهمة . بالنسبة لها فقد كانوا اعطوها الحق في الإختيار بين «مهراجا» أو أمير من سيام أو تاجر صيني غني ، فقررت اختيار هذا الأخير لكونه شاباً وديعاً . . »[1].

وفجأة تذكرت بعض مقاطع البروتوكولات « من المسيحيين ـ يقول البروتوكول الأول ـ أناس قد اضلتهم الخمر ، وانقلب شبانهم مجانين بالمجون المبكر الذي اغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهر ما ناتنا في البيوت الغنية ومن إليهم ، ونساؤنا في أماكن لهوهم ، واليهن اضيف من يسمين «نساء المجتمع» والراغبات من زملائهم في الفساد والترف »[2]

« اليوم ـ يقول البروتوكول العاشر ـ سأشرع في تكرار ما ذكر من قبل ، وأرجو منكم جميعاً أن تتذكروا أن الحكومات والأمم تقنع في السياسة بالجانب المبهرج الزائف من كل شيء ، نعم ، فكيف يتاح لهم الوقت لكي يختبروا بواطن الأمور في حين أن نوابهم الممثلين لهم

---

(١) صفحة ١٥٠من الكتاب المذكور ، ترجمة محمود صبيح ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ .
(٢) صفحة ١١٧-١١٨ من الطبعة الرابعة ، ترجمة محمد خليفة التونسي .

لا يفكرون إلا في الملذات»؟[1].

« ولكي نصل إلىٰ هذه النتائج - يقول البروتوكول العاشر نفسه - ستتدبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسوّدة بفضيحة . . أو صفقة سرية مريبة . . إن رئيسنا من هذا النوع سيكون منفذاً وافياً لأغراضنا لأنه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذي يمتلك دائماً الرجل الذي وصل إلىٰ السلطة والذي يتلهف علىٰ أن يستبقي امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع »[2].

إذن ، فإن الأمر ليس كلاماً يقال ولا حلماً أو خيالاً . . إننا نلتقي فيما يحكيه لنا الشاعر التشيلي بكروزي « التي قالت بأن لها منصباً جيداً في باتافيا » ونلتقي بمنظمة دولية « كانت مهمتها ؛ أن تشبك فتيات أوربيات في أسرّة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو القاب مهمة » .

والنتيجة بعد ذلك معروفة ، تفسرها وتزيدها ايضاحاً المقاطع التي مرت بنا قبل لحظات .

ويقيناً فإن «كروزي» ليست وحدها ، والمنظمة الدولية الأوروبية ليست وحدها كذلك . . . فهذه وتلك مما اكتشفه بالصدفة ، الشاعر التشيلي في عشرينات هذا القرن ، فأما ما لم يكتشفه فهو مئات من «كروزي» وعشرات من منظمات القوادة العالمية ذات المستوىٰ العالي . . . إذا صحّ التعبير !

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥٣ .

إن المسألة ليست حدثاً عابراً ، ولكنها ظاهرة لعبت ولا تزال دورها الخطير في سياسات الدول والحكومات .

ترىٰ . . . ابمقدور قوة في الأرض أن تخترق اخلاق المسلم المحصّنة بالإيمان العميق لكي تسوقه إلى هذا المصير المفجع فتجعله باللذّة، وبالخوف من الفضيحة أداة رخيصة بأيدي المنظمات الدولية ؟ ومن أجل أن تمضي «كروزي» اليهودية إلىٰ هدفها ، وتجد المنظمة الدولية الطريق معبداً أمام عمليات الأصطياد اليومي كان لا بد من تدمير حاجز القيم الخلقية وإزاحة ترسانة الإيمان . . وذلك ما تفسّره وتؤكده بروتوكولات اخرىٰ يعرفها الجميع . . .

الظاهـرة الأبديـة

للماديِّين وأنصاف المؤمنين تفاسير عديدة للظاهرة الدينية ، يتحول احدهم من إحداها إلىٰ الأخرى حيثما شعر أن فيها خللاً ما ، أو ثغرة واسعة قد تجعل التفسير يرتطم مع ابسط البداهات العقلية ، فضلاً عن الروحية ، حتىٰ إذا وجد أن تفسيره الجديد لا يحظىٰ بالإقناع الكامل هو الآخر تحول عنه إلىٰ غيره .

وهكذا قد تستمر رحلة التفسير للظاهرة الدينية العمر كله ، وقد ينتهي الأمر ببعض هؤلاء إلىٰ موقف نقيض تماماً للمنطلق الذي صدروا عنه فيتحولون إلىٰ (التديّن) بعد إذ أدركوا خطل ما كانوا فيه وسخف كل المحاولات البشرية الوضعية القاصرة لتفسير ظاهرة تفوق قدرة العقل البشري نفسه وتتأبّىٰ علىٰ معطيات الحس القريب .

يقولون أن التدين هو نوع من تشبث الإنسان بالخرافة امتداداً لجهله بسنن الحياة وقوانين العالم . . ويقولون أنه محاولة ساذجة يجابه بها الإنسان الضعيف القوى التي تفوقه وتهدد مصيره فيتعبدها ويخضع لها درءا لعقابها الذي لا يدري كيف وإيان ينزل علىٰ رأسه . . ويقولون

أنه تعبير عن حالات نفسية معينة يزول بزوالها . . ويقولون أنه انعكاس طبقي لتطمين مصالح طبقة ما وتمكينها من مجابهة خصومها . . ويقولون . . ويقولون . .

وأكثر هذه المقولات اعتدالاً ، وبعداً عن الشطط ، تلك التي ترىٰ الدين تعبيراً عن نزوع الإنسان المستمر لفهم الكون وتحقيق نوع من الوفاق بينه وبين العالم الذي يحيا فيه .

لكن هذه المقولة علىٰ اعتدالها الظاهر لا تعدو أن تكون كلمة حق يراد بها باطل . . خطأ مقصوداً في نهاية التحليل يسعىٰ لحصر الظاهرة في نطاق وضعي ويطرحها كما لو كانت سعياً بشرياً صرفاً يقوم به الإنسان من الداخل ، من نسيج تركيبه وتشوّفه ومطامحه لصياغة حالة دينية يتحقق من خلالها بالإيمان ، والقناعة والإستقرار .

وهذا بطبيعة الحال موقف يناقض ابتداء التحليل الذي جاءت به الأديان السماوية . . تحليل يقف علىٰ طرف التضاد الكامل مع القول بأن الدين علم فوقي يقيني يتنزل بين حقبة وأخرىٰ لكي يعيد الإنسان الىٰ مساره الصحيح في مسالك العالم والكون والحياة.

علم فوقي يجيء من الله سبحانه ، ويتلقاه الإنسان هبة علوية كاملة الصدق ، وليس له أزاءها أن يزيد أو ينقص ، أو أن يغيّر ويبدل ما دام أنه قد قبله ، منذ اللحظة الأولىٰ ، برنامج عمل الهي لم يكن بمقدور الإنسان أن يتمسك بالصراط ويمضي إلىٰ هدفه علىٰ الخط المستقيم إلا به ومن خلاله .

نعم لقد حدثت الزيادة والنقص ، وتم التغيير والتبديل علىٰ كثير من

الأديان القادمة من السماء ، لكن هذا الفعل « الإضافي » البشري القاصر ما فعل سوىٰ أن غطىٰ علىٰ جوهر تلك الأديان بطبقة من الرين والتراب ، ما فعل سوىٰ أن قام بتزييف روحها ، وتضييع شخصيتها المتفردة وتحويلها إلىٰ حشد من الضلالات والأوهام .

وثمة فرق كبير بين هذا التزييف الذي كاد أن يأتي علىٰ العديد من الديانات السماوية وينحرف بها صوب وجهة مغايرة تماماً لمسارها الأصيل ، وبين المدىٰ العقلي الواسع الذي تتركه هذه الأديان للانسان المؤمن كي يعمل جهده الخاص وقدراته الذاتية من أجل تنظيم حياته علىٰ ضوء مؤشرات الدين وخطوطه الكبرىٰ القادمة أساساً من السماء والتي ليس لأحد الحق مطلقاً في أن يغيّر فيها ويبدل أو يزيد وينقص . .

تنظيم الحياة على ضوء المعطيات الدينية وليس من خلال تزييف هذه المعطيات وإضافة اجسام وضعية غريبة في تركيبها .

إن الإسلام الذي جاء لكي يصدق ما سبقه من أديان ، ويهيمن عليه ، الإسلام الذي تنزل لكي يعيد الألفة ، والوضوح ، ويكشف عن الشخصية الدينية عبر مسارها الزمني الطويل الذي عبثت به رياح الأهواء البشرية والمصالح والظنون الإسلام يؤكد هذا المرة تلو المرة حتى ليغدو وبديهة من بديهيات الحس والوجدان المسلمين . .

فليس الدين ـ إذن ـ سوىٰ علم لدنّي لم يكن بمقدور احد من الناس أن يصنعه على هواه ، أو يفصّله علىٰ قدّ مصالحه النفسية أو الإجتماعية .

وإذا كان ثمة في الأديان ما يوحي بأنها تعكس قدراً من التثبت بالخرافة ، أو تسعىٰ لتحقيق قدر من الأمن الذاتي على حساب الحقائق . وإذا حدث وأن عبّر هذا الدين أو ذاك عن حالة نفسية أو مصلحة طبقية ، فما ذلك لأن الدين نفسه يريد هذا أو يتوخاه ابتداء ، وإنما لأن الأهواء البشرية نفسها سعت لتحويل الدين عن مهمته الحقيقية وزيّفت ـ لهذا الغرض أو ذاك ـ اهدافه الكبرىٰ .

وهذا شيء والقول بأن التدين نفسه ظاهرة عرضية في مسار التاريخ البشري وأنه انعكاس لحالات نسبية موقوتة وتراكمات زمنية عابرة ، شيء آخر تماماً . .

لأن الدين ظل ، وسيظل تلك الظاهرة الأبدية التي تحمل استمرارها وديمومتها في مجابهة كل الأوضاع والأحوال مهما تبدلت وتغيّرت .

بل إنه الظاهرة (التاريخية) الوحيدة التي قدرت علىٰ فرض ثقلها وحضورها في الوقت الذي تغيرت وتبدلت وغابت مذاهب ونظريات وتفاسير وأوضاع . .

اليس ما يحدث في بعض الدول المادية ، مثل بولندا ، من توجه دينميّ جارف ، بعد حوالي نصف القرن من المحاولات المرسومة لقتل الظاهرة ، دليلاً منظوراً ، ومقنعاً ، لما نقول ؟

مغزىٰ اسلام غارودي

منذ أكثر من عام تناقلت الصحف نبأ اعلان المفكر الفرنسي الشهير « روجيه غارودي » إسلامه!

لم يكن حدثاً عادياً والحق يقال ، فغارودي عقل كبير متنوع الثقافة عميقها . . ليس هذا فحسب ، ولكنه بتحريكه المعروف عبر ربع القرن الأخير ، كان يمثل « تقليداً » ثقافياً علىٰ الساحة الغربية ، أو بعبارة اخرىٰ «ظاهرة» لم يكن هو سوىٰ واحد من نماذجها الكبيرة .

ففيما بين الحربين العالميتين علىٰ وجه التقريب كان التقليد السائد هو توجّه العقل الغربي المبدع ، القلق ، الباحث عن اليقين إلىٰ الماركسية .

ومنذ بدايات الحرب ، وطيلة العقود التالية بدأت عملية الإرتداد بعد أن تبيّن لهذا العقل أن الماركسية لا يمكن أن تمنحه اليقين المنشود وكلنا نعرف رحلة رجال من أمثال «اندريه جيد» و«أرثر كوستلر» «ريتشارد رايت» و«اكناز سيلوني» و«ستيفن سبنـدر» و«لويس فيشر». . . وغيرهم ممن انتموا للماركسية فكراً أو تنظيماً، ثم ما

لبثوا أن ارتدوا عنها أو بعبارة اخرىٰ عجزت هي عن أن تلبّي طموحهم للتحقق باليقين المرتجىٰ.

فبعضهم عاد إلىٰ مواقع الفكر الليبرالي المتهرىء المترع بالتناقضات وبعضهم الآخر ظل يحلم بماركسية من نوع جديد فوجد نفسه يدلف الىٰ عالم اليوتوبيا والخيال الفكري الحالم مرة اخرىٰ . .

وفئة ثالثة ظلت تعاني القلق والإضطراب ، وتواصل سعيها من أجل العقيدة التي تطفىء ظمأها الملح في عالم قفر غدا بالنسبة إليها اشبه بالصحراء التي لا أول لها ولا آخر..

فأما «غارودي» فقد قدر علىٰ اجتياز المحنة وتحقّق باليقين المنشود وكانت كتاباته منذ «منعطف الإشتراكية الكبير» تومض بمصير متفرّد تعود الروح فيه لكي تعانق الجسد الذي يختنق يأساً والحاداً فتبعث فيه الحياة والأمل من جديد .

من هنا يكسب اسلام «غارودي» أهمية من بين عشرات ، بل مئات وألوف يعلنون إسلامهم كل يوم في مشارق الأرض ومغاربها.

أتراه بدء تقليد جديد ستشهده العقود القادمة من الزمن وهل أقدر من (الاسلام) علىٰ منح الجواب للعقول الكبيرة التي لم يكن بمقدور المذاهب الوضعية أن تمنحها ما تريد ؟ وها هي العقيدة القادمة من عند الله الذي يعلم من خلق والذي هو سبحانه ادرىٰ بخلقه ، تحقق الاستجابة وتقود الحيارىٰ إلىٰ المصير المتوحد الذي يتوقون اليه . .

لقد كان الإسلام دائماً قديراً علىٰ كسب اناس من مستويات حضارية متقدمة إلىٰ صفّة ، بل إن هذا التقدم الحضاري والنضج

الفكري لهو واحد من العوامل التي تدفع المثقف الىٰ إدراك أعمق ميزة هذا الدين ، وتفرّده وقدرته علىٰ الإستجابة لمطالب الإنسان الحديث .

وإنها لمعادلة واضحة الأبعاد ، متكاملة الأطراف ، أن يملك هذا الدين القدرة علىٰ الكسب في كل زمن ومكان ، وأن يلتقي مع مطالب الإنسان وأشواقه وحاجاته الأصيلة ، حيثما كان هذا الإنسان ، وأن يحمل قدرته علىٰ الحركة والامتداد في قرن تاسع أو قرن عشرين .

وإذا كان الفارق كبيراً حقاً ـ في المستوى الحضاري ـ ما بين الإفريقي الذي انتمىٰ للإسلام في القرنين الماضيين وبين الأوربي أو الأمريكي أو الياباني الذي ينتمي اليه في القرن العشرين ، فإن ثمة قاسماً مشتركاً اعظم تذوب معه الفوارق الحضارية والجغرافية والجنسية ، بل تذوب معه حواجز الزمان والمكان ، ذلك هو إنسانية الإنسان . ولقد كان الإسلام وسيظل الصيغة الوحيدة للتعامل مع هذه (الانسانية) ، ليس من قبيل الكلام الذي يقال ، ولكنها التجربة المعاشة التي شهدتها وتشهدها ، وستشهدها اقطار العالم الأربعة . .

فليس بدعاً من الأمر أن ينتمي عقل كبير كالمفكر الفرنسي المعاصر (غارودي) الى هذا الدين ، الذي ظل وسيظل يتميز بقدر ته الأبدية علىٰ الاستجابة لمطالب الإنسان في القرن السابع الميلادي أو القرن السبعين !

حين تغدو الفيزياء تلاوة وذكـرا

هناك في طبقة اعمق من المعرفة أو الثقافة البشرية التي يحظىٰ بها ويتألق عدداً من المفكرين حيث يحدث ـ أحياناً ـ وأن يلتقي العلم بالمنطق بالإيمان بالفلسفة وفق نسب موزونة ، متداخلـة ، فتكـون كل كلمـة تقال أو عبـارة تكتـب ، ويكون كل حديث يروىٰ أو كتـاب يؤلف ، علماً ومنطقاً وفلسفـة وإيماناً . . ويكـون اللقاء الفـذ بين المعادلـة الرياضية والقانون الطبيعـي والتعليل العقلـي والتصوّر الذهني والنزوع الروحي . .

ويكون التعاشق المتفـرّد بـين العقـل والقلب والـروح والوجدان . .

ويكون التقابل المؤثر ، الفاعل بين الله والإنسان . .

هناك في تلك الطبقة العميقة التي لا يسبر غورها إلا العقول الكبيرة التي تتجاوز خداع الحواس ، وتتأبى علىٰ الأسر في حيز المنظور والملموس . . العقول الكبيرة التي تعرف جيداً أن « المادة » لا تشكل جداراً نهائياً يصعب اقتحامه أو يستحيل ، وتدرك تماماً أن وراء الأسوار القائمة عوالم وموجودات وحقائق لا تقل ثقلاً وحضوراً عما

يتشكل ويتحرك عند أسفل الأسوار ، مما تراه الحواس ، إن لم تفقها حضوراً وديمومة وفاعلية وتأثيراً . .

هناك في تلك الطبقة العميقة من المعرفة البشرية المستنيرة المتكاملة يكمن ما ما يمكن اعتباره «الحكمة» العليا أي حصيلة الجهد البشري في ميدان البحث عن الحق . . . خلاصته المكثفة وجوهره المنتقى . .

حكمة . . لأن الحكيم يمارس من خلالها جمعاً لا تفريقاً ، وتوحداً لا تشتتاً ، وتوافقاً لا تبعثراً ، وشمولاً لا تجزؤاً . . .

ولأن الحكيم يمتلك اللغة التي يستطيع بمفرداتها المتألقة أن يتعامل مع كتلة العالم المادية ونواميسها وسننها ، كما يخاطب في الوقت نفسه وبالمفردات ذاتها الجان والحيوان والملائكة والشياطين . .

ولأنه يعرف كيف يفجر ليس طاقات العالم والطبيعة ، وإنما طاقاته الذاتية المذخورة ، فيحظى بما يبدو وللوهلة الأولىٰ عجائب ومعجزات وأسراراً . .

إن القرآن الكريم يقولها بصراحة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[1] . . فمن خلال المنظور القرآني القادم من عند الله العالم ، المدبر ، الخلاق القدير ، تبدو الحكمة قمة المعرفة ، ويظهر الحكيم كما لو كان بطل عصره ، لأنه المفكر والمؤمن . . الفيلسوف والمتصوف . . الرياضي والمتعبد . . لأنه الرجل الكامل الذي تعبّر تجربته عن صيغة الوفاق المرتجىٰ بين الإنسان وبين العالم والكون وهو الأمر الذي جاءت الأديان لكي تجعله امراً مشهوداً في مجرى الحياة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩.

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقولها بوضوح (الحكمة ضالة المؤمن اني وجـدها فهو احق بها (. . . ليست هذه المفردة أو تلك ، ولكنها كل المفردات محصلة العلم الشمولي الذي تكون فيه الكلمة رقماً رياضياً وتبتلاً ودعاءً وذكراً . .

إن المسلم ، انطلاقاً من البيئة الثقافية التي درج في احضانها . . . بيئة القرآن الكريم والحديث الشريف والمعطيات التي تمخضت عنهما في الزمان والمكان لا يحتمل ـ إن علىٰ مستوىٰ التحليل العقلي أو الإحساس الوجداني ـ مأساة التفريق والثنائية هذه بين معطيات المعرفة . . لا يحتمل أن يكون العقل نقيض الإيمان ، أو أن يكون الجسد نقيض الروح ، أو أن يكون المنطق نقيض الدين ، أو أن تكون الفلسفة سلاحاً بوجه التقرب الى الله !

إن المسلم عقلاً ، وروحاً ، ووجداناً ، يمتلك قدرة ذاتية عجيبة علىٰ تحقيق التوحد ، والاندغام ، والتوافق بين هذه التكوينات المعرفية ذات المستويات المختلفة ، والتي حوّلها الرجل الغربي، ابن البيئة المادية ، أو العلمانية في احسن الأحوال إلىٰ اشتات وتفاريق ، واجج بينها الصراع والإقتتال .

واليوم يشهد التعامل الفيزيائي مع المادة ، والتوغل المختبري في تركيب الذرة ومحاولة السيطرة على كنه الطاقة ، والحركة ، يشهد هذا كله امراً عجباً . . .

لقد انهارت الأسوار وتساقط الجدار الصلب الذي اتكأ عليه العقل الغربي طويلاً وأدار ظهره للدين والغيب والماورائيات كافة . . ينهار وتفتت حجارته المنظورة ، وطينه اللزج الهش اللين فإذا بالتركيب

المادي نفسه يقود إلىٰ الغيب !! أو إلىٰ ما يمكن اعتباره مدخلاً للغيب علىٰ أقل تقدير.

وإذا بمعادلات الرياضيات والفيزياء تستحيل تعبداً وتلاوة وتسبيحاً وذكرا . .

وإذا بالذرات نفسها تعلن بلسان الحال عن تسبيحها للخالق المبدع ، المدبر سبحانه وتعالىٰ . .

بكهاربها ربها السالبة والموجبة غير المتناقضة كما توهم ماركس .

وإذا بفلسفة العلم ، التي هي حصيلة معطياته المستجدة ، وقانونه المكثف ، وتفسيره المركّز ، تعلن بوضوح لا تعلق به ذرة من غبار أننا أمام عصر سيعود فيه العلم لكي يرتمي في احضان الدين ، بعد رحلة عذاب ونصب دامت القرون الطوال .

ولن يكون بعد اليوم سوىٰ العقل المتديِّن أو الدين المتعقِّل، فليس ثمة ـ بعد ـ ذلك الخصام والإقتتال بين تيارات المعرفة وطبقاتها . . ليس سوى التصالح والوئام . .

وتتألق « الحكمة » مرة اخرى لكي تنير سبل العالم للمدلجين ويكون « الخير الكبير» الذي بشرت به كلمات الله!!

الشـاهد المتألّق

الأدلة كثيرة .. والحقائق والممارسات التي تشع ضوء حتىٰ ليكاد تألقها يسلب الابصار ، أكثر ، والبديهيات أكثر بكثير .. بديهيات في الفكر وأخرىٰ في السلوك اليومي المنظور وفي حشود المفردات التي تشكل اخلاقية الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

ولكن اين العقول التي تفقه .. والعيون التي ترىٰ .. والقلوب التي تؤمن فتطمئن ؟

ثلاث وعشرون سنة ورسول الله يغادر فراشة في جوف الليل لكي يؤدي صلواتٍ كانت تتورم لها قدماه ، وتتقرّح الأجفان ، ويكاد الجسد يئن نصباً وأعياءً ..

ثلاث وعشرون سنة ورسول الله ينهض من فراشه حتىٰ والبرد يلسعه في ليالي الشتاء الجليدية .. حتىٰ ونداء النوم يدعوه لكي يرتاح قليلاً من عناء نهار ليس كنهار الناس العاديين .

لماذا ؟ ولمن ؟ وعلام هذا العناء وهذا الالتزام الصارم وهذه الممارسة التي لم يتنازل عن أدائها يوماً واحداً فقط على مدىٰ ثلاث

وعشرين سنة هي عمر الرسالة والرسول عليه افضل الصلاة . . وأزكاها . . وأطيبها ؟

وما كان صلّى الله عليه وسلم ينام وحده لكي يتسلل الشك الشيطاني إلىٰ النفوس المريضة فتستسلم له وتقول ؛ ربما ؟ من يدري ؟ لعله صلّى يوماً وتجاوز أياماً ؟

لم يكن ينام وحـده . . ومعنىٰ ذلك أن ممارسة كهذه غدت أمراً تاريخياً مسلماً به . . فمن خلال (شهود (يومي لنسوته ـ أولاً ـ حيث كان يتبتل في داره ، ومن خلال شهود يومي أكثر اتساعاً لصحابته الكرام الذين ما تخلىٰ عن إمامتهم في صلاة الفجر يوماً ، تغدو المسألة يقيناً يكتسح كل وسوسة ، وشهادة منظورة تفرض حضورها علىٰ الملاحدة قبل المؤمنين . .

ومرة أخرىٰ . . لماذا ؟ ولمن ؟ وعلام هذا العناء ؟

وحاشا لمؤمن أن يتوجه بسؤال كهذا لنفسه أو للآخرين . . وأنه لأمر بديهي كبديهية الإيمان نفسها ، أن ينهض الإنسان المسلم في جوف كل ليل ملبياً نداء الله ، منفّذاً واحدة من الصلوات الخمس التي كتب الله مواقيتها علىٰ المؤمنين فكيف بالرسول نفسه عليه أفضل الصلاة والسلام ؛

ولكنه سؤال نقذف به وجوه المتشككين بنبوة النبي ، الموسوسة صدورهم بصدق رسالة الرسول . .

ليس سؤالاً في حقيقة الأمر ولكنه تح يحمل واحدة من اشد الحقائق ثقلاً وحضوراً لكي يقول للناس ؛ ها هي ذي ، مفردة واقعة

تؤكد صدق محمد بن عبد الله ، مع نفسه ومع الناس ، وقبل هذا وذاك مع الله سبحانه الذي لم يكن بصلواته الليلية الصعبة تلك يلبي امره فحسب ، ولكنه يتجاوز هذا الىٰ التعبير عن حبه وشكره وعرفانه .

ترىٰ . . كم من أمثال هذه المفردة المتألّقة كضوء الشمس ، الواقعة كحقيقة الحياة والموت ، المؤكدة كما لم تتأكد ممارسة من قبل ، شهدتها حياة الرسول صلّى الله عليه وسلم؟

كثيرة جداً ، بحيث إنها بمجموعها تشكل سلوكاً متناغماً لم يتعرض يوماً لنشاز ولم يضعف خفقانه حتىٰ اللحظات الأخيرة . .

كثيرة جداً ، وأن أيّة منها لكفيلة بأن تبلغ بالإنسان حافة النصب وتدفعه إلىٰ طلب الراحة بشيء من التفلّت وبشيء من التساهل ، بنوع من اللااكتراث الذي قد يتطلبه الجسد والعقل والجملة العصبية بين الحين والحين .

ولكن رسول الله مضىٰ ثلاثاً وعشرين عاماً يواصل التزامه ليلاً ونهاراً . . لم يتساهل ولم يرتح لحظة واحدة . . مضىٰ لكي يؤدي المطالب الصعبة ويضرب بسلوكه النبوي مثلاً للذين يعايشونه ، ولكل القادمين فيما بعدُ علّهم ينفذون عشر ما كان عليه الصلاة والسلام ينفذ . .

ومن يدري ، فلعله صلّى لله عليه وسلم كان يجد راحته في هذا الكدح الطويل ويتحقق بالتوازن الصعب إزاء ربه الذي منحه الأمانة الثقيلة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملها واشفقى منها .
من يدري؟

ولكن السؤال المتحذي يظل قائماً ، تقذف به وجوه قوم يلتقي لهم المرء في كل زمن ومكان . . أولئك الذين يتسلىٰ بهم الشيطان فيجعل متعتهم القصوىٰ ممارسة الوساوس والشكوك . . هؤلاء هم المعنيون بالسؤال . . لماذا ؟ ولمن ؟ وعلام ؟ إن لم يكن هناك إله واحد يبعث نبيه للناس ، أكان محمد بن عبد الله يلتزم ممارسة هذا الجهد المضني علىٰ مدىٰ عمره الذي قضاه قائداً وزعيماً ؟ حيث كان يتحتم بمنطق التشكيك نفسه أن ينهل من الطيبات وأن يستغل ـ وحاشاه ـ مركزه هذا لكي يسعد ويتنعم ويرتاح ؟ أكان يفرض ـ اساساً ـ هذه الصلاة الصعبة بين الصلوات علىٰ نفسه وأمته ؟!

بلىٰ إنها النبوة الحقة . . وإنها مطالب التقابل الكبير بين الله سبحانه وبين مبعوثه بالصدق المطلق لكي يقود الناس ، في كل زمان ومكان ، إلىٰ الصراط .

تلك الطاقة المهدورة

يمتلك المسلمون اليوم طاقات كبيرة وقدرات فاعلة لا تتوفر لغيرهم من الأمم، ولكنهم لا يفيدون منها ، لا في حدودها القصوىٰ ، ولا المتاحة ، ولا حتىٰ في حدودها الدنيا . .

إنهم - للأسف - يمارسون إزاءها ما يمكن تسميته بهدر الطاقة ، ويبدو أنه ليس ثمة أمة في العصر الحديث ابرع في هدر طاقاتها من الأمة الإسلامية وبضمنها العربية بطبيعة الحال .

ليس هنا مجال البحث عن الأسباب فهي أوضح من أن يشار إليها ، كما أنه ليس هنا مجال استعراض الطاقات المهدورة فهي اكثر من أن تعدُّ وتحصىٰ . ولكننا نقف وقفة سريعة عند واحدة فحسب من ممارسات الهدر ، كاد المسلمون بالألف والاعتياد أن ينسوها تماماً ، نلك هي المنابر التي تلقىٰ عليها خطب الجمعة ، مرة كل اسبوع ، في مشارق عالم الإسلام ومغاربه .

الآف المنابر وآلاف الخطب الأسبوعية وملايين المستمعين ،

والمرصاد في معظم الحالات لا شيء !!

بل إنه يتجاوز اللاشيء هذه صوب ردود الأفعال السلبية التي تعبّر عن نفسها بالمال حيناً ، وبالقرف حيناً آخر ، وبالسخط حيناً ثالثاً ، وبالهروب الىٰ النوم حيناً رابعاً ، وبمزيد من الجهل بالأمور حيناً خامساً . .

بل إنه يتجاوز هذه السيئات كلها إلىٰ ما هو أمرّ وأنكى : التضليل الذي يمارسه كثير من الخطباء في مواجهة المصلّين من أجل أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . .

بل إنه يتجاوز هذه ايضاً إلىٰ ما يمكن اعتباره خطيئة واضحة كالشمس ؛

تردّد بعض المصلّين في التوجه إلىٰ صلاة الجمعة لهذه الأسباب جميعاً رغم أن هذه الصلاة فريضة لا مجال فيها البتة لجدل أو نقاش .

لماذا هذا كله ؟ في وقت كان يمكنأن تتحول فيه المنابر الىٰ طاقة فاعلة تمنح المسلمين عطاءً حسناً متجدداً لا ينضب له معين من العلم والتربية والتفقه والمعرفة والوعي بمجريات الأمور وطبائع الأشياء؟!

يمكن أن يكون المنبر أداة إعلامية للتحقق بالمزيد من الوعي والإحاطة باطراف الوقائع المتجددة علىٰ مدىٰ العالم كله فيما بعد فهمه والإلمام به ضرورياً لكل مسلم ومسلمة ، إن علىٰ مستوى السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الاجتماع ، أو العمران . .

ويمكن أن يكون المنبر أداة علمية ، ثقافية ، لمنح جماهير المسلمين المزيد من المعرفة في شتى الميادين ومختلف الحقول ، فيما ينميّ

المعطيات التي تلقوها عن المؤسسات التعليمية الأخرىٰ ، ويربطها بأصولها العقيدية الإيمانية كي لا تتحول الىٰ سلاح مضاد يشهر ضد العقيدة والإيمان !

ويمكن أن يكون المنبر أداة تربوية تمنح المسلمين ، وبخاصة اولئك الذين يقفون علىٰ عتبات الوعي ولم يتجاوزوا بعد سني الصبا والشباب ، المزيد من القيم التربوية وتدلهم علىٰ الطريق .

ويمكن أن يكون المنبر أداة حركية يرسم الخطط التفصيلية ، ويحدد الأهداف المرحلية ، ويحفز جماهير الناس من أجل بلوغها بالأختزال الزمني المطلوب .

ويمكن أن يكون المنبر ـ كذلك ـ أداة موازنة لصالح الإسلام نفسه بمواجهة اجهزة الإعلام والثقافة والتعليم والتربية . . يمحص ويناقش ويفنّد ويثبت ويربط معطيات هذه الأجهزة بما يجعلها لا تمرّ إلىٰ عقل المسلم إلا من خلال المنظور الإسلامي .

كثيرة جداً هي الإمكانات التي يمكن أن يتمخض عنها هذا التقليد الإسلامي الأصيل الذي أريد له أن يكون فاعلاً ، مؤثراً ، حاضراً في سرى الزمن ولحمة المكان . . أي بعبارة اخرىٰ معاصراً ، بمعنىٰ الكلمة . .

إن المرء ليتساءل ؛ لم يحاول معظم الخطباء أن يهربوا من مواجهة مشاكل العصر وتحدياته الىٰ موضوعات عفا عليها الزمن واصبحت جزءً من التاريخ ؟ لم يجبنون عن الدخول في حوار مثمر مع معطيات الساعة المتجددة لكي يقولوا فيها كلمتهم ويحيطوا جماهير المصلّين علماً بكنها وأبعادها ؟

الا يتحتم أن تكون خطبة الجمعة قناة تنفتح علىٰ الحياة التي يحياها المسلم اليوم . . علىٰ ما يتخلّق في ساحاتها وأروقتها . . علىٰ ما يصير في جنباتها ؟

الا يتحتم أن يتحول خطيب الجمعة إلىٰ صوتٍ اعلامي ينقل للناس ما يجري علىٰ ساحة العالم مما يمسّ المسلمين من قريب أو بعيد ، وما أكثر ما يمسّهم من قرب ومن بعد . . بل إنه في زمن السرعة والإختزال والتواصل الجغرافي الخاطف ، ليس ثمة ما لا يهمهم ، ومن ثم وجب ان يكونوا علىٰ المام به لكي يسيروا على بينة ويعرفوا جيداً المسالك التي عليهم أن يجتازوا والخرائط المعقدة التي ترسمها تحديات العصر والتي يضيع في شعابها من لا يلتقىٰ الضوء والإشارة ساعة بساعة واسبوعاً بأسبوع .

ويتساءل المرء كذلك ؛ لم لا يتحول الخطيب الى معلم أو أستاذ يجعل من ساعة اللقاء محاضرة علمية منهجية مرسومة تعالج فيها مسألة ما . . قضية محددة من كافة جوانبها ، وتشبع بحثاً وتحليلاً لكي يخرج المصلون وقد أضافوا إلىٰ علمهم علماً؟!

ولماذا هذا الصراخ الذي يصك الأسماع ويتلف الأعصاب فيما لا مبرّر معه للصراخ ؟ أمن الضروري ان تكون خطبة الجمعة صراخاً مستمراً حتىٰ والخطيب يعالج مسائل لا تقتضي ابداً هذا الضجيج المثير احياناً للقرف والإشمئزاز ؟! الا يمكن أن تخاطب جموع المصلين ، في عصر الأدوات الصوتية المكبرة والموصلة بأسلوب هادىء ، رصين قد يحقق ما لا يحققه الصراخ ؟

اسئلة كثيرة تدور في ذهن المسلم ، واعتراضات شتىٰ تحيك في نفسه وهو يجد هذه الممارسة المؤثرة التي منحها الإسلام اتباعه تهدر علىٰ ايدي وألسنة حشود الخطباء التقليديين ، وقد تتحول الىٰ سلاح مضاد .. فلماذا؟!

الزكاة .. تلك الضريبة العجيبة

حتى عهد قريب كان كثير من الناس يتصورون أن الزكاة ضريبة بسيطة لا تعدو أن تكون نسبة متواضعة علىٰ رأس المال قد لا تتمخض عن مبالغ ذات بال . بل إن بعض الناس تصورها مجرد تزكية أدبية للمال بغض النظر عن حجم النتائج المتأتية عن دفعها .. تزكية أدبية ما دام أن الزكاة هي كالصوم والصلاة شعيرة إسلامية أقرب إلىٰ الممارسات التعبدية الروحية منها إلىٰ التشريع المالي أو التخطيط الإجتماعي .

بل إن بعض المفكرين الإسلاميين أنفسهم لم يجدوا فيها أكثر من (حدود دنيا) يتحتم أن يتجاوزها المسلم إلىٰ مزيد من العطاء ، والدولة المسلمة إلىٰ مزيد من الأخذ .. إذ ماذا تعني نسبة الواحد إلىٰ الأربعين في نهاية كل حول ؟

وما تلبث الأيام أن تمضي ، وتكرّ السنون والعقود ، ويتدفق الخير علىٰ مساحات شتىٰ من عالم الإسلام ؛ ثروات طبيعية وموقعاً ممتازاً وأنشطة اقتصادية وذهباً وفضة وأموالاً . وما تلبث الأموال أن تتدفق علىٰ جيوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وإذا ببعض هؤلاء

يحسبون النسبة المتواضعة تلك فإذا بها تشكل لدىٰ كل واحد منهم مئات الالآف من الدنانير بل ملايينها ، فكيف بهم جميعاً ؟

إنها ـ والحق يقال ـ مبالغ هائلة لم تدر بخلد إنسان قبل عقود قليلة فحسب . . . هائلة بحق ، ولن تكون الكلمة مجرد صيغة انشائية هدفها التفخيم والتضخيم . . فماذا لو التزم جميع المالكين بدفع هذه الضريبة محسوبة بالضمير المسلم الذي يخشىٰ الله علىٰ الفلس الواحد لايوضع في محله ؟ ماذا لو التزمت السلطات الإسلامية في عصر الاحصاء ، والتنظيم المالي ، والهيمنة الإدارية علىٰ كل صغيرة وكبيرة . . عصر الحسابات الدقيقة والمؤسسات المتخصصة والضرائب ، ماذا لو التزمت بأخذ هذه الضريبة بالميزان القسط ، من كل من استحقت عليه طواعية أوكرهاً ؟ وماذا لو قامت اجهزة متخصصة، ومؤسسات متمكنة في تحويل هذه الطاقة المالية الكبيرة الى اداة للتنمية والإستثمار من أجل مزيد من الكسب للجهات التي بيّنها كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام من التي تستحق الزكاة ؟

نتائج كبيرة بكل تأكيد ، إنْ علىٰ مستوىٰ النشاط الإقتصادي للبلد المسلم أو علىٰ مستوىٰ الكفاية ، وتقليص الفوارق الإجتماعية ونشر العدل الذي يعض عليه الإسلام بالنواجذ .

ومن عجب أن هذه الضريبة يتحتم دفعها في نهاية كل حول بنسبتها الثابتة علىٰ الربح وعلىٰ رأس المال نفسه. ويتساءل المرء ؛ ماذا لو لم يشغل رأس المال عبر هذه السنة أو تلك ؟ ماذا لو لم يستثمر أو يشارك في هذه الجهة أو تلك ؟ والجواب هو أنه لابد من دفع زكاته في نهاية الحول وبالنسبة الثابتة ، واحد من أربعين .

ومعنىٰ ذلك أن أي رأس مال مهما كان حجمه، مقضي عليه بالتفتت والزوال في نهاية المدة ، المفروضة ، إلّا أن يهرع فيرمي بثقله في مجرىٰ النشاط الأقتصادي ، ويغادر عزلته ، ويتجاوز خطيئة الاكتناز والتكديس ، وحينذاك ستتحقق الميزة الأخرىٰ ؛ مزيد خير لصاحب المال ، ولمستحقي زكاته وللنشاط الاقتصادي للبلد ، ثم لثروته القومية في نهاية المطاف .

وهكذا يتضح ـ بلغة الأرقام ـ كما يقولون ـ كيف أن هذه الضريبة التي كان يظن أنها تكليف بسيط يستهدف ما يمكن أن يعد صدقة أو إحساناً ، انما هي مشروع مالي مركّب يسعىٰ لتحقيق أكثر من هدف في وقت واحد ويؤول إلىٰ مزيد منفعة لكافة الأطراف .

إن هذه الضريبة، شأنها شأن العديد من الممارسات والتنظيمات الإسلامية في سائر مناحي الحياة ، كانت مثاراً للجدل والنقاش ، وكثيراً ما اغمط حقها ، ووضعت في غير مكانها الحقيقي ، ثم ما لبثت الوقائع والمعطيات أن كشفت عن أبعادها الحقيقية وعرضتها للناس ممارسة فذة ، وخطة مرسومة بدقة ، وتنظيماً يتوخى خير الدنيا والآخرة﴿ صنع الله الذي اتقن كل شيء ﴾

ونتذكر هاهنا ايضاً كيف يكون الزمن ، بما يتضمنه من كشف متواصل ، ومن تراكم في الخبرة ، عاملاً مساعداً علىٰ ابراز دقة الصياغة ، واعجازها وبراعتها بالنسبة لجوانب عديدة من الإسلام تأكيداً للآية الكريمة ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق ﴾[٢].

---

(١) سورة النمل اية ٨٨.

(٢) سورة فصلت آية ٥٣.

هنا في دائرة التنظيم المالي ، وهناك دائرة التنظيم الاجتماعي ، أو التربوي ، أو التشريعي ، أو أي من دوائر الفكر الإسلامي الأخرىٰ . .

وتحضرني هنا محاولة لصديق يتخصص في علم الاحصاء الإقتصادي في إحدىٰ جامعات بريطانيا تستهدف اعتماد نظم هذا العلم وطرائقه من أجل القيام بتحليل احصائي لضريبة الزكاة في شريحة ؛ زمنية ومكانية من عصرنا الراهن والمحاولة لم تستكمل أسبابها بعد ولم تعلن عن نتائجها ، ولكن الرجل يأمل في أن يصل إلىٰ ما يؤكد للناس ، بالرقم ، والمنحنىٰ البياني ، معجزة الزكاة . .

ثغرات في رداء المادية

أيهما اقرب إلى الصواب ، أن نعامل الإنسان من خلال موقعه الإنساني الشامل كإنسان ، أم موقعه الاجتماعي المحدود كفرد في طبقة ؟ وإذا كان افراد بعض الطبقات يمارسون ظلماً واستغلالاً ، فما ذنب الآخرين الذين ولدوا عن غير اختيار في الطبقة نفسها ، ولم يمارسون ظلماً أو استغلالاً ، بل إنهم - ربما قدموا لمجتمعهم وللبشرية أجلّ الخدمات ؟ اليس جل المخترعين - على سبيل المثال - ينحدرون من الطبقة البورجوازية ، ربما الإقطاعية أو الأرستقراطية ، التي صبّت عليها الماركسية اللعنات ؟

إن المنظور الماركسي من هذه الزاوية يقترب ، بنزوعه الجبري وعدم اعطائه مكاناً واسعاً لحرية الإنسان واختياره ، من المنظور الشوفيني الذي يتعامل مع الإنسان من خلال انتمائه العرقي الذي لم يكن له خياراً فيه . .

إن القرآن الكريم يقولها بصراحة ﴿ تلك امة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾[1] . . وسواء

(١) سورة البقرة آية ١٣٤ .

كانت (الأمة (طبقة أم عرقاً ، أم مزيجاً من الطبقات والأعراق ، فإن أية جماعة تنتمي إلىٰ هذه الطبقة أو تلك ، وإلىٰ هذا العرق أو ذاك ، ليست مسؤولة ـ بالضرورة ـ عن اعمال المنتمين إليها كافة ، لأن القرآن الكريم يعود لكي يضع التبعة النهائية علىٰ عاتق الفرد نفسه ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرىٰ ﴾[1] ﴿ وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ﴾[2] ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ ﴾[3]..

وبهذا يتحقق التقابل بين الإنسان والحرية ، ويكون الاختيار هو الحكم الفصل فيما يكون للإنسان أو يكون عليه..

أن ينتمي إلىٰ هذه الطبقة ، أو أن تكون فرداً في تلك السلالة ، مسألة لا خيار لك فيها، ومن ثم يتحتم ألا يختم علىٰ مصيرك من خلال واقعة جبرية كهذه أو تلك . . والحكم العادل يتأتىٰ حين ينصب علىٰ اختيار الإنسان وفعله الحر أياً كان موقعه الاجتماعي أو انتماؤه القومي . . ففي الساحتين نلتقي بالاخيار والأشرار ، ونتعرف علىٰ حشود الصالحين والطالحين . .

والتعميم هو الخطأ القاتل ليس للحقيقة وحدها ولكن لاقدار الناس وحقوقهم المشروعة في هذه الحياة . .

إن المنظور الطبقي الذي اعتمدته الماركسية ما يلبث أن يقع في خطيئة أخرىٰ غير خطيئة التعميم ، تلك هي التسطيح . . إن الحاحه

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٤ .
(٢) سورة الإسراء آية ١٣ .
(٣) سورة النجم آية ٣٩.

علىٰ فكرة الطبقة يدفعه إلىٰ تجاوز التفاوت النوعي للأفراد ، سواء كانوا ضمن طبقة واحدة أو عدة طبقات ، ويسوقه إلىٰ تحويل الإنسان الىٰ رقم مجرد كغيره من الأرقام المصفوفة الىٰ جوار بعضها .

ومن خلال هذا التسطيح لا يضيع ذوو القدرات الخاصة والمواهب المتميزة فحسب ، بل يضيع الإنسان نفسه بما أنه نسيج معقد متشابك من الطاقات العقلية والروحية والوجدانية والجسدية ، بما أنه طبقات متداخلة تبدأ بالقشرة الخارجية للإنسان وتتوغل نزولاً باتجاه الأعماق .

إن الماركسية بتأكيدها علىٰ التركيب الطبقي للمجتمع ، اهملت في مقابل ذلك التركيب الطبقي للنفس البشرية ، فضحّت بهذه الحقيقة من اجل الطبقية الإجتماعية وأخذت تتعامل مع القشرة الخارجية للإنسان بعيداً عن طبقاته الأشد عمقاً وتعقيداً .

وليس فقط « جارلس بيج » و« ماك آيفر » كعالمي اجتماع بورجوازيين يقولان بأن « ماركس » مارس خطيئة تسطيع النفس البشرية بأكثر مما يجب ، بل إننا نجد أديباً معروفاً « كريتشارد رايت » ، الزنجي المضطهد في مجتمع رأسمالي ، انتمىٰ إلىٰ الشيوعية حيناً من الدهر ، ثم ارتدَّ عنها بعد اكتشافه العديد من العيوب والثغرات ، نجده هو الآخر ينعىٰ علىٰ الماركسية سلوكها الخاطىء هذا « لقد كان الشيوعيون ـ يقول الرجل ـ ينظرون إلىٰ الجماهير وخبراتهم نظرة ابسط من الحقيقة بكثير ، انهم في محاولتهم تجنيد الجماهير قد ضلوا عن فهم حياة الجماهير فكانوا ينظرون إلىٰ الناس نظرة عامة مجردة أكثر مما ينبغي » .

ومن حيث أرادت الماركسية الدفاع عن مصالح الجماهير ، سلكت طريقاً ملتوياً استهدف منها لقمة الخبز ، ولكنه سلبها شيئاً اغلىٰ بكثير ؛ تميزها الإنساني ، وتركيبها النفسي الذي لا يكفي رغيف الخبز وحده ، ولا المسكن وحده ، ولا أداة النقل وحدها ، لاشباع حاجاته ومطامحه التي لا تحدها حدود . .

التعميم والتسطيح .. ثغرتان من عشرات تخترق جسد الفكر الماركسي وتملؤه بالشروخ والتشققات . .

صحيح أنه ما من مجتمع في تاريخ البشرية ، بما فيه المجتمع الشيوعي نفسه ، يخلو من تميز طبقي ، علىٰ الاطلاق ، ولكن الإلحاح علىٰ فكرة الطبقية هذه ، التشنج عليها واعتبارها مفتاح كل شيء ، مع الاعتقاد بأنها بدء الحياة والتاريخ البشريين ومنتهاهما ، هو المنزلق الذي قاد الماركسية إلىٰ العديد من الاستنتاجات الخاطئة .

ولقد كان التعميم والتسطيح اثنتين من تلك الاستنتاجات ، لم تكونا في نهاية التحليل لصالح الإنسان .

---

(١) عن كتاب الصنم الذي هوىٰ ، لأرثر كستلر ورفاقه ، ص ١٤٦ ، ترجمة فؤاد حمودة ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٠ .

تأثيرات السلوك

في حوار مع صديق عائد من الغرب : ما الذي يجعلهم ينفرون منا ؟

لم نتطرق ـ بطبيعة الحال ـ للبعد المذهبي أو الديني ، أو حتى التاريخي ، فتلك مسائل اخرىٰ قد لا يكون للغربي فيها أي مبرر موضوعي عادل علىٰ الاطلاق اللهم إلا مبرر الحقد ، والمصلحة ، ورد الفعل، والانطلاق الديني ، وسموم الانشطة المضادة وبخاصة الصهيونية والمادية والتبشير . . وما شئنا من سلبيات قد تكون بالفعل الدافع وراء كراهية الغرب الصليبي والمادي للشرق المسلم .

إنما كان الحوار ينصب على نقطة محددة ، كنا نجد أنه في إطارها المحدَّد هذا قد يكون للغربي أن ينفر من الشرقي المسلـم والعربي علىٰ وجه الخصوص ، وهو أمرٌ يعرفه جيداً معظم الدارسين هناك من طلبتنا أو الذاهبين إلىٰ هناك من الأساتذة والمتطبِّبين والسياح .

بعضهم يحيله علىٰ الدوافع التي المحنا إليها قبل لحظات ، فيحاول بذلك أن يتحايل علىٰ الأسباب الأكثر مباشرة وقرباً ، وبعضهم يحاول أن يتعامىٰ عنه ولا يكترث به رغم أنه واقع مشهود . . وفئة ثالثة

اقرب إلىٰ الموضوعية واكثر احساساً بضرورة تجاوز «الوضع السيء» تسعىٰ لوضع يدها علىٰ الأسباب للداء المستعصي .

جرَّنا الحوار إلىٰ تركيز المسألة بكلمتين فحسب ؛ تأثيرات السلوك ! فإن الشرقي المسلم ، العربي علىٰ وجه الخصوص ، قلما يسعىٰ ، وهو يحيا لفترات قد تطول وقد تقصر في لندن أو ادنبره أو أكسفورد أو باريس أو ليون أو ميونيخ أو روما . . أو واشنطون أو موسكو . . أو غيرها . . . للتحقق بسلوك متحضِّر ، مقبول ولا أقول متدين ، لأن معظم الذاهبين إلىٰ هناك ليسوا متدينين رغم أن الدين ، هو في ناحية من نواحيه ، الضمان الوحيد للسلوك المتحضِّر الموزون . .

فبمفردات السلوك الجافي ، غير المتحضر ، يمارس اصحابنا هناك خطيئة فادحة بحق كل ما هو عربي مسلم أو شرقي . . إنهم ، أو الغالبية منهم بعبارة أدق ، يضربون مثلاً عملياً يؤكد للقوم ، بالمنظور والملموس ، مدىٰ تخلفنا عنهم . . مدىٰ جفائنا المتأصل في العروق ، ويريهم الفارق الكبير بين المستوىٰ الحضاري الذي بلغوه والمستوى المتدني الذي يخيل اليهم بما يرونه من هذه المفردات السلوكية ، أن الشرق المسلم ، والعرب على وجه الخصوص يتخبطون فيه . .

تحدثنا بألم عن كثير من الحالات السيئة وضربنا الأمثلة علىٰ العديد من المفردات ، مارسها هذا الرجل أو ذاك ، وقدمها للخصم وسيلة اعلام سيئة تتحول علىٰ ايديهم إلىٰ سلاح مضاد ، وتستقر في نفوسهم وعقولهم مزيد كراهية ونفور وازدراء . .

ليس ثمة مبرر لطرح الشواهد ولا اعتقد أن ذا عينين يخفىٰ عليه ما يجري هناك علىٰ ايدي العديد من الدارسين والسائحين في عواصم الغرب .. في المنتزهات والفنادق والأسواق المركزية والنوادي والمسارح والمقاهي والحانات والمباغي والأزقة والشوارع .. وحتىٰ في الشقق وغرف المنام ..

مفردات سلوكية سيئة ، متدنية ، جافية ، تحدث عنها الكثير من العائدين، أما الغربيون فلم يكتفوا بالحديث عنها، والتقزز منها وإنما تجاوزوا ذلك. بنزعتهم البراغماتية المنفعية المعروفة - إلىٰ استغلالها أدوات دعاية مضادة وابتزاز الأموال والاخلاق والعقول بل انهم تجاوزواذلك إلىٰ نوع من الأستعباد والقنانة يفرضونها علىٰ أولئك الذين ارتضوا، بالشهوة الساقطة والسلوك المتدني ، أن يغدوا أدوات بأيدي مراكز التوجيه الغربي ، يدفعون بها إلىٰ الشرق لكي تلعب دورها المرسوم ضد الأمة .. والوطن .. والعقيدة ..

وتذكرنا بأسى ، والحديث يدلف منا من مسألة لأخرى ، كيف أن سلاح السلوك المنظور هذا كان بأيدينا يوماً ففتحنا به العالم ، وكسبنا عقل الإنسان وقلبه ، وخفقت راياتنا في كل مكان .. وكيف أنه يتحول اليوم الى سلاح مضاد نشهره ضد انفسنا فنخسر في خرائط العالم ، ونزداد انكماشاًوتضاؤلاً .. ونرغم علىٰ أن ننزوي ، وسط احساس غامر بالدنية والمهانة ، واكثر من مركب نقص تجاه كل ما يتعلق بخصومنا أيا كان موقع هؤلاء الخصوم ..

قلت لصديقي ؛ لقد رأيت نماذج منهم وهم يتحدثون ، بتباه ، عما فعلوه هناك مع هذه الألمانية أو تلك ، وفي هذا البار أو ذاك ،

ووسط هذه المناسبة العائلية أو تلك. . لقد اصابني القرف والإشمئزاز وأنا اتمثل ممارستهم هناك . . شيء يثير الاحتقار حقاً ، وهم ابناء بلدي ، محسوبون على الأرض التي انتمي إليها فكيف بالغربيين « الغرباء » ، كيف بالغربيين « الخصوم »؟ كيف بأعداء ديننا ووطننا إذا نظروا إلى هذه الممارسات الدنيئة الجافية ، البعيدة عن مطالب التحضر ، فضلاً عن مطالب الاخلاق والدين ؟ ماذا هم متصورون وماذا سينبغي على تصورهم هذا من مواقف وأحكام وسياسات ؟!

الإيمـان والمؤسسـة

إن « الإيمان » لا يمثل ضرورة عقيدية فحسب ، ولكنه يعد ضرورة « عملية » ايضاً إذا ما أريد للحياة البشرية أن تمضي بيسرٍ إلىٰ اهدافها ؛ وأن تتمكن من تحقيق مهمتها في الأرض .

ضرورة « عملية » علىٰ مستوىٰ الفرد ، والجماعة ، والدولة ، والحضارة والبشرية . .

ونحب أن نقف هنا قليلاً إزاء هذه الضرورة بالنسبة للدولة ، لأن ما كتب وقيل عن الجوانب الأخرىٰ قدّم من الأدلة والقناعات ما فيه الكفاية . . ويزيد . .

إن الإيمان يمنح المواطن الوازع للانجاز ، ويقظة الضمير ، والإحساس الدائم بالرقابة الإلّهية علىٰ كل فعل وممارسة . . وهذه الميزات الثلاث تجيء بمثابة قوىٰ فاعلة ، وصمامات أمان من أجل تسيير شئون الدولة ومؤسساتها وأنشطتها بأكبر قدر من الدقة والإخلاص والإبداع ، والانضباط الخلقي ، والروح الإنسانية .

ولن يكون بمقدور أي بديل وضعي أن يعوض عن هذه الميزات مهما كان ذلك البديل علىٰ قدر من النضج والدقة والاتساع . .

ورغم أننا نعيش عصر التقنية المتقدمة .. التقنية التي منحت الدول قدرات فائقة وإمكانات فـذة للرقابـة ، والإنضباط ، والتنظيم، والانجاز ، فإنه لن يكون بمستطاعها أن تفعل عشر معشار ما تفعله الميزات التي يشكلها الإيمان في عقل الانسان وحسه ووجدانه .

وما أكثر الموظفين والعمال الفنيِّين الذين لا يقدمون جهدهم كاملاً خلال ساعات العمل، دون أن يكون بمقدور مدير أو مسؤول أو جهاز رقابة دقيق اكتشاف نسبة تجميد الطاقة او هدرها عبر تلك الساعات وما أكثر الموظفين والفنيين والعمال الذين لا يحسُّون بدافع ملحٍّ للاخلاص في عملهم أو لانجازه بالصيغة الأفضل، دون أن يكون بمقدور مدير أو مسؤول أو جهاز متطور اكتشاف هذا الدافع السلبي واستبداله بما يجعل المواطن مندفعاً لتحقيق الاتقان والإحسان فيما ينجزه من اعمال وما ينفذه من مهام وواجبات .. وما أكثر الموظفين والفنيين والعمال الذين يجدون أنفسهم في مساحات واسعة من نشاطهم وممارساتهم، بعيدين عن الرقابة الخارجية ، لا تمسهم عين ولا تسمعهم أذن ولا يضبطهم جهاز، فينفلتون من المسؤولية ، وقد يمارسون اعمالاً مضادة لالحاق الأذىٰ بمسيرة الدولة وانشطتها .

وهكذا يجيء الإيمان لكي يصنع المعجزة فيبعث المواطن الذي يمتلك الوازع والضمير والتقوىٰ .. وتجد الدولة حشوداً من الموظفين والفنيين والعمال يسعون لتقديم جهدهم كاملاً عبر ساعات العمل ، دونما هدر ، أو تضييع ، ويتفننون لتقديم اقصىٰ ما يملكون من قدرة علىٰ الاتقان والإحسان ، ويشعرون دوماً بأن هناك من يرقبهم ويراهم في كل صغيرة وكبيرة ، فيتحاشون سخطه بالأخطاء المقصودة أو التقصير ، ويسعون لرضاه بمزيد من العمل والإتقان .

كثيرة جداً النتائج العملية المتمخضة عن دور الإيمان في تسيير عجلة الدولة وتصريف شؤون مؤسساتها المختلفة . ونستطيع ها هنا أن نشير إلىٰ بعضها فحسب ، بينما هنالك الكثير .

إنه يحمي أموال الدولة وطاقاتها وقدراتها المادية من السرقة والابتزاز والتفريط .

ويحمي حقوق المواطنين من الأهمال أو الضياع أو تحكيم المصالح والأهواء . .

ويدفع الموظف إلىٰ بذل الحد الأقصى من الجهد لتقديم اكبر قدر من العطاء ، كما يدفعه أن يكون مخلصاً لعمله ، أميناً عليه ، ساعياً لتقديمه بالحد الأقصىٰ المستطاع من الإتقان والإبداع .

وهو فضلاً عن هذا وذاك ينشيء تقاليد انسانية في التعامل بين كوادر الدولة الوظيفية وبين المواطنين ، تحفظ كرامة الإنسان وتحميها من الأذلال أو الامتهان .

ومن اجل معرفة ثقل هذه المسألة فإن بمقدور أي مرء أن يتذكر الخط الطويل من الموظفين الذين اضطر للتعامل معهم عبر حياته من أجل انجاز هذه القضية أو تلك . .

إن قلة من هؤلاء سعت لأن تعينه علىٰ انجاز مهمته بأكثر الأساليب نبلًا وشرفاً وإنسانية ، ولكن الأكثرية الساحقة ، بالعكس ، سعت ، لسبب ، أو آخر ، الىٰ عرقلة هذه المهمة واستخدام اكثر الأساليب استفزازاً ودناءة وامتهاناً وبعداً عن كرامة الإنسان . .

لقد كان المواطن يخرج من كل عشر معارك ، إذا جازت التسمية ،

منتصراً مرة واحدة منهزماً ، مطحوناً مرات ومرات . .

قد يحظىٰ ببغيته ، وقد ينجز مهمته ، ولكن بعد أن يخسر الكثير . . يقيناً . .

ترىٰ لو كان الإيمان يملك حضوره وثقله في مجرى العلاقات الوظيفية ، أكان يمكن أن تحدث هذه المأساة ؟

باختصار شديد ، فإن الإيمان يعين الدولة ليس فقط علىٰ تحقيق اهدافها بأكبر قدر من النجاح والتفوق ، بل إنه يمكنها ـ كذلك ـ من اختزال حيثيات الزمن والمكان ، للوصول إلىٰ الأهداف بأسرع وقت ممكن ، ويتيح لها أن تستجيب لاصعب التحديات وأشقها فتزداد قوة ومنعة وعطاء . .

ولن يستطيع احد ـ بعد هذا ـ أن ينكر دور الإيمان في نشاط الدولة أو المؤسسة ، أو ينفي كونه ضرورة عملية تدخل في نسيج النشاط العام وتلعب دورها في النتائج المتحققة علىٰ أرض الواقع .

إنه ـ أذن ـ ليس ضرورة عقيدية فحسب ، يقتضيها الوضع البشري في العالم ، أو تحتمها الحقيقة الكونية التي تشير صباح مساء ، بألف شاهد ودليل ، إلىٰ حتمية الإيمان باعتباره الصيغة الأكثر صدقاً ، بل الصيغة الصادقة الوحيدة لعلاقة الإنسان بما يحيط به من حقائق وظواهر وموجودات .

ولكنه ضرورة عملية ـ كذلك ـ لمسنا قبل لحظات جانباً من مردودها الكبير ويعرف الإنسان كيف يكون اشهار السلاح بوجه الإيمان ، ووقفه عن الفعل والتحقيق ، أو حجبه عن العمل في واقع الحياة

العامة ، موقفاً خاطئاً من الأساس قد يحمل نزعة انتحارية ، لأنه يتحرك ضد مصلحة الإنسان ومصلحة مؤسساته . .

هذا علىٰ فرض التسليم بالدافع البريء لهذا الموقف . . ذلك أن معظم هذه المواقف التي تتصدىٰ للإيمان ، وتسعىٰ إلىٰ عرقلة حركته ووقف فاعليته ، إنما تتعمد هذا لهدف مرسوم لا يجد المرء كبير صعوبة في تلمُّس أسبابه ودوافعه !!

.. وسيكون سعيداً

حدثني احد اصدقائي الأدباء عن معاناته القاسية وهو يمارس الكتابة منذ اكثر من عشرين عاماً ، وأن معاناته هذه لم تبلغ ما بلغته عبر السنتين الآخريتين.

حاولت أن اطمئنه بأن كل الذين يكتبون يعانون ، وأنه عذابهم اليومي ، ولكن النتائج الطيبة كثيراً ما تنسيهم إياه .

ابتسم بمرارة وهو يقول : لا ليس هذا !!
- ماذا تعني إذن؟

فبتنهدة عميقة انتزعها من اعماقه قال : الأحساس المرير باللاجدوى . . وواصل كلماته بالمرارة نفسها : لا تتصورني سأخرج جملاً وعبارات تقليدية عندما اتساءل : علام نكتب ؟ ولمن؟ ولماذا؟ لأن هذه الأسئلة بالنسبة لي على الأقل اصبحت اشبه بالجمر الذي يكوي أصابعي ويصدّني عن المضي في الكتابة. . إنني موقن الآن حتى اعمق طبقة في وجداني بأن ليس ثمة جدوى من الكتابة على الأطلاق . . فما الذي تنتظره من تأليف كتاب واحد أو عشرين كتاباً؟

لا شيء !! وهكذا تراني منذ شهور وأنا لم احاول أن أكتب سطراً واحداً !

كنت اعرف تماماً أنه لم يخرج بهذا التوقّف عن دائرة العذاب فسألته ؛ وهل تحسّ الآن أنك سعيد ؟ بعبارة اخرى ، هل تحولت بالتوقف عن الكتابة إلىٰ حالة ؛ افضل ؟ الىٰ نوع من التوازن أو الامتلاء أو الاحساس بطعم الدنيا والأشياء؟

أجاب وهو يدرك تماماً ما الذي اقصده ؛ أبداً . . فإن شبح اللاجدوىٰ ظل جاثماً علىٰ صدري كما كان من قبل ، وانضاف اليه ثقل آخر . . شبح ثانٍ لا يقل عنه أثارة للتعاسة والمرارة والشقاء . . إنه السأم . .

ومنذ زمن بعيد وأنا اعاين صديقي هذا ، حيث كنت اتردد عليه بين الحين والحين ، يكتب فهو شقي ، لا يكتب فهو تعيس . . يدخل في دوامة العمل لكي ينسىٰ فلا يقدر . . يخرج إلىٰ متاهة التبطل والفراغ فيزداد قلقاً وتأزماً وسأماً .

وها هو الآن يصعد احساسه بلا جدوىٰ الكتابة إلىٰ دائرة اوسع تشمل وجوده بالكلية . . إنه الأحساس بلا جدوىٰ الحياة . . وها هو ذا يقولها بصراحة علام نحيا ؟ ولم ولدنا ؟ ولماذا نموت ؟ بعد إذ بدأ من سؤاله المحدود ذاك ؛ علام نكتب ؟ وما هو الجزاء ؟

والمسألة ـ بإيجاز شديد ـ ليست مشكلة معقدة مستعصية علىٰ الحل ، ولا هي ـ كما حاول الغربيون أن يصوّروا ـ معضلة فلسفية تكتب فيها الكتب وتصدنف النظريات والفلسفات إنها أوضح وأيسر

وابسط من ذلك بكثير . . وهذا الرجل الذي تحاصره اللاجدوىٰ كواحد من عشرات ، بل مئات والوف ، أراه أمامي بوضوح ، ومن خلال تجربته المنظورة وسلوكه الملموس ، عبر كل جزئيات حياته التي اعرفها جيداً ، والتي استطيع أن أضع يدي علىٰ سرّ مأساتها وأقول : هنا ، دون أن اجدني مضطراً للرجوع إلىٰ كتاب واحد أو فصل من كتاب حاول فيه المؤلفون الضائعون أن يحللوا الأزمة ، وينظروها ، ويضعوا لها المبادىء والغايات . .

إن الرجل غير مؤمن بالله !

هذه هي المسألة باختصار . . ولقد قالها هو بنفسه ، قالها اكثر من مرة ، وعبّر عنها في مياوماته اللحظة بعد اللحظة، وقال كذلك أنه يتمنىٰ ان يكون (مؤمناً) ولكنه لا يستطيع .

ومن يدري ؟ فقد يجد الإيمان في يوم قريب أو بعيد كما وجده مئات من الذين بدأوا الطريق ذاته ودفعتهم المعاناة المبهظة الىٰ اللجوء إلىٰ الله ، واصبحوا سعداء ممتلئين متوازنين . . واستمروا علىٰ العطاء ، بعد إذ كان الإحساس بالاجدوىٰ يسد عليهم الطريق ويكفهم عن العمل والسعي والإبداع.

إنها كلمة السرّ والمفتاح والإشارة الضوئية التي تمنح الإنسان القناعة والرضا واليقين ، وتدفعه إلى العالم متحرراً، نشطاً ، مبدعاً وسعيداً . . تعطيه كذلك الخرائط الإلٰهية الدقيقة التي تبين له أين عليه أن يسير واين عليه أن يتوقف ، وأيّة من الطرق يتحتم عليه أن يجتازها وصولاً إلىٰ مصيره المتوحّد الفريد .

إن كل جزئية من جزئيات الحياة الخاصة ستجد مغزاها في

لإيمان ، وكل سلوك مهما صغر أو كبر سيجد معناه في الإيمان . .
وكل عطاء أو انجاز أو إبداع سيجد هدفه في الإيمان. . وكل كلمة
تكتب أو كتاب يؤلف سيجد جزاءه في الإيمان . .

إن هذا الإيمان المتألّق الذي يضيء حياة الإنسان ويمنحه الطريق،
يعطيه في الوقت نفسه الأحساس المتيقن العميق بأنه ما من صغيرة أو
كبيرة يمارسها ، عن قصد ، إلا وهي محسوبة بحساب .

إن الإيمان إذ يربط معطيات الإنسان بفكرة الثواب والأجر
والآخرة ، والخلود . . إنه إذ يضع الإنسان في تقابل مبدع مع الله
جل وعلا . . إنما يمنحه الطمأنينة واليقين في أنه ما من شيء باطل في
هذه الحياة ، ما من سعي ضائع ابداً . . وأنه مكتوب عليه أن يواصل
العمل والعطاء ، ليس من قبيل ملأ الفراغ ، وكسر جدار السأم
وإثبات الوجود المحدود ، ولكن لأنه كإنسان مؤمن يتحتم عليه أن
يواصل السعي قبالة الله سبحانه . . أن يزرع الفسيلة المخضرة التي
يحملها بيده حتىٰ وهو يستمع إلىٰ النفير الأخير . . إلىٰ صُور يوم
القيامة ، كما علمه رسوله أن يكون!

أردت أن أقول له هذا ، أن اشعره بأنني سعيد إذ أكتب، وأنه ما
من كلمة أخطها بيميني إلا وأنا مسؤول عنها أمام الله ، وهي بدورها
محسوبة لي هنا وهناك ، وأنه لم ينتابني ، لحظة ، هذا الأحساس
التعس باللاجدوىٰ . علىٰ الاطلاق . .

ولكني ترددت ، وقلت في نفسي : ما دام الرجل لم يمتلك بعد
كلمة السرّ ، لم يتسلّم المفتاح ، فلن تجديه الف موعظة أو الف
تجربة .

ويقيناً فإنه سيعثر على الكلمة ، وسيجد المفتاح ، وسيكون سعيداً . . فعلها قبله كثيرون وسيفعلها بعده كثيرون ولن يضيّع الله عباده المتخبطين في الظلمات!!

المنفيّون من الجنة

وهذا نموذج آخر يتحرك في طريق معاكس تماماً ، شأنه شأن كثير من خاضوا التجربة نفسها . .

أديبٌ هو الآخر . . كتب العديد من القصائد ونشر العديد من الدواوين . . بدأ بالإيمان ولكنه ما لبث أن وجد نفسه ينحدر سريعاً صوب مواقع النفاق ، فالكفر ، فالألحاد !

حاصره الكبت والمغريات ، طاردته المرارات والاحباطات التي يعانيها المؤمنون في عالم لم يعد يأبه للإيمان . . فلم يقدر على المقاومة واستسلم بيسر وسهولة . . وانزلق الى حيث يتوقّع أن يجدَ بغيته . أن يتجاوز الحصار . . وأن تكف المتاعب عن ملاحقته .

ترى هل قدر على تحقيق الهدف ، وقبض ثمن التسيُّب والإنفلات ؟

ابداً ، فها هو ذا بحسّه الشاعري العميق ، وبوجدانه الذي لا يكف عن الخفقان وبأعصابه التي غدت لفرط حساسيتها اشبه بأسلاك الكهرباء . . ها هو ذا يدرك تماماً أن الحياة الدنيا اصبحت فرصته

الوحيدة ، وليس ثمة فرصة اخرىٰ وراءها علىٰ الاطلاق . . وأن عليه أن يسارع فيما تبقى له من عمر ، وفيما احتفظ به من طاقة وحيوية لاهتبال الفرصة المحدودة ، المنصرمة ، قبل فوات الأوان . .

وإذ كان ما تبقىٰ قليلاً تافهاً . . مجرد سنوات فحسب وتحين الشيخوخة والذبول وإذ كانت الطاقة المتاحة محدودة هي الأخرى ، مهددة بين لحظة واخرى بالاغلال والتلاشي . . فإن الرجل ما لبث ان وجد نفسه في معادلة صعبة ، بعبارة اخرىٰ ؛ في مصيدة وضع نفسه بإرادته فيها ، ولم يعد يقدر علىٰ الخروج منها ، بل لم يعد يجرؤ علىٰ أن يقول لأحد من الناس ؛ هات يدك لكي اخرج من الفخ . .

وأنه ـ والحق يقال ـ فخّ ذو أسنان حادة كالأنياب الجارحة ، تدخل في اعماق اللحم وتتوغل الىٰ نسيج الاعصاب ، فتمزّق الإنسان وتحيل حياته جحيماً !

أحايين . . كنت أراه ، أو استمع إليه ، أو اقرأ له ، أو أسمع عنه . . وكنت اجده في كل الأحوال يركض بسرعة تفوق طاقته من أجل وضع يده علىٰ هذه اللقمة أو تلك . . من أجل تطمين هذه الحاجة التافهة أو تلك . . من أجل اطفاء هذه اللذة الموقوتة ، أو تلك . . من أجل نيل هذا المكسب الحقير أو ذاك . .

يركض إلىٰ حد اللهاث ، فقد يصل حيناً وقد لا يصل احياناً ، ولكنه ما يلبث أن يعيد الكرة وأن يستأنف السباق والمجنون بطاقة لا تقدر علىٰ تحمل جنون يستفزه زمن منصرم وعمر ثان محدود . .

ثم هو مع من يتسابق؟ مع أناس يفوقونه قدرة ويزيدون عليه طاقة

ويصغرونه عمراً . . مع أناس قد يكون أمامهم من الزمن فرصة أوسع بكثير من هذا الذي يدلف الىٰ الرجولة ويوشك أن يبلغ حافتها . .

وهذا التقابل الذي ليس في صالحه يزيده جنوناً . . ويدفعه إلىٰ مواصلة الجري لأنه ما من فرصة اخرىٰ غير هذه السنين المحدودة . . وهو كشاعر يعرف ، أكثر من غيره ، أن علىٰ الإنسان أن يتحقق بأي شيء ، مهما يكن تافهاً ، من أجل أن يفيد من الفرصة التي منحت له .

أبداً ما خطر علىٰ باله يوماً أن الصفقة ، بصيغتها هذه ، ما هي في صالحه علىٰ الاطلاق حتىٰ ولو احتسبناها بحساب المصالح وقسناها بمنطق المقاولين والتجار . .

إن التنازل عن الإيمان يعني التشتت والدمار . . وبدونه لن يحظىٰ الإنسان ، والإنسان الحساس علىٰ وجه الخصوص ، بتوازنه وتوحده علىٰ الاطلاق . .

مساكين هم أولئك الذين يتنازلون عن مواقع الإيمان . . يتخلّون عن المساحة الشاسعة الممتدة في الزمن والمكان لكي ينحسروا في الجحور الضيقة . . في الزوايا المعتمة ، بحثاً عن لقمة اكثر دسماً ، واشباع لشهوة أشد الحاحاً . .

ثم ما تلبث المحاولة أن تتكشف عن فراغ مخيف ، محزن ، وعن اختيار بليد لم يملك اصحابه ذرة من ذكاء . .

فأين هو الإنسان الذي يتحرك على مدىٰ الكون من ذلك الذي

اختار أن يزحف كالحشرات في الجحور والثقوب اللزجة ، الرطبة ، المعتمة ؟

وإنني لأشاهده بين الحين والحين ، يحاول أن يقتسر ابتسامة مصطنعة ، مرسومة بصعوبة ، يضعها علىٰ وجهه البائس التعيس ، مجرد ديكور يغطي به حقيقة المحنة التي وضع نفسه فيها . .

وكنت احسّ دائماً وأنا أراه فأقارنه بصاحبنا الذي تحاصره اللاجدوىٰ ، إنه أكثر تعاسة منه[1] . . فذاك قد استسلم لنوع من اليأس الذي هو احدىٰ الراحتين، أما شاعرنا فإنه لا يزال يحترق في كل لحظة . . لا يزال يركض فلا يقدر علىٰ اللحاق .·. لا يزال يلهث بفم يسيل لعابه وهو يرنو إلىٰ هذه اللقمة الدسمة أو تلك الشهوة المغرية فيهرع إليها .

وما دامت اغراءات كهذه تتجدد لحظة بعد أخرى، فإنه مكتوب عليه أن يواصل اللهاث ثم يلبث أن يجد نفسه غير قادر علىٰ الوصول ، فتقتله الحسرة ويدلف إلى ساحة الفناءوهو أشد احساساً بالحرمان من المؤمنين أنفسهم الذين اكتفوا بالقدر المعلوم من المباحات . .

مسكين هو شاعرنا . . إنه يمثل بتجربته الكالحة صيغة معاكسة تماماً لتجربة كاتبنا ذاك . . كلاهما يعانيان من مرارة انعدام اليقين . . ولكن الأول قد يصل يوماً ، أما الثاني الذي اختار أن يتنازل عن موقعه كمؤمن ، فكيف سيتاح له الرجوع الىٰ الجنة التي نفىٰ نفسه منها . . كيف ؟!

---

(١) انظر مقال (. . . وسيكون سعيداً) .

لنحاول أن نجرّب

هل جرّب احدنا أن يؤمم حياته ووجوده وتجربته الذاتية وباطنه وظاهره . . لله؟!

هل احسّ احدنا بالطعم العذب ، والنكهة الحلوة ، والإيقاع المتفرد ، والفرح الطاغي ، والإستقرار ، والتوحّد ، والأمن . . وهو يمارس المحاولة ؟

هل قدر احدنا علىٰ تجاوز الحزن ، والقهر ، والأسى ، والندم ، والخوف ، والتمزق ، والشقاء ، والضياع . . وهو يهب نفسه بالكلية لبارئها يفعل بها ما يشاء؟

لا اعتقد . . خصوصاً ونحن نعيش عصر الغتمة المادية ، والتكاثر ، والاخلاد الىٰ الأرض . . عصر صراع المصالح، وثقلة الشهوات ، والأرتكاس في حمأة الأهواء والظنون ، والإثارة والإغراء . .

عصر الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتمزق ، والضياع .

عصر الاستلاب الفكري والنفس والاجتماعي والسياسي والعقيدي .

عصر الطغيان ، والإستبداد ، وتعبيد الناس بعضهم لبعض ، أو تعبدهم لمصالحهم وشهواتهم وأمانيهم وأهوائهم . .

العصر الذي تطاولت فيه الجدران الفاصلة بين الإنسان وبين السماء ، وأخذت تزداد سمكاً وغلظاً يوماً بعد يوم . .

ومع ذلك . . بل من اجل ذلك ، كان لا بد من المحاولة ، مهما كلفت من جهد ، وتطلبت من مشقة ، واقتضت من تضحية . . لابد من المحاولة كي يكسر الإنسان الطوق ، ويفتح ثغره في الجدار الكالح ، ويتجاوز الحصار المصروب . .

ولن يكون ذلك مستحيلاً أن صدق العزم وخلصت النية . . وقد فعلها قبلنا كثيرون ويفعلها اليوم كثيرون . . وسيظل الكثيرون يفعلونها لأن الثمرة الحلوة تستحق التضحية والمشقة والفداء . .

أن نؤمّم وجودنا لله بالمحبة ، أو بالتفكير ، أو بالذكر ، أو بالعمل ، أو بالجهاد . . أو بالشهادة .

كثيرة هي أبواب التأميم . . وهي تدعونا كلًا من حيث يقدر على الاستجابة للنداء ، ويعتقد أنه جدير بتنفيذ مطالبه ، والتحقيق به ، وتحويله الى حياة واقعة تعاش ، ساعة بساعة ولحظة بلحظة .

إن الإسلام بسبب من واقعيته ، ويسره ، وانطباقه الباهر على قدرات الإنسان وامكاناته ، لا يلزم اتباعه بالصعود إلى هذا الأفق

الذي قد يتكلف مشقة وجهداً . . ويضع دونه خطاً قريباً من متناول الإنسان هو خط الإيمان . .

لكنه لا يقف عند هذا الخط ، بل يعقبه بخطوط اخرىٰ ، وينادي الإنسان المسلم بلهجة مترعة بالوعد والإثارة ، أن يتحرك لعبور هذه الخطوط صعوداً باتجاه القمة . .

إن التقوىٰ هي الخط التالي، باتجاه الإحسان . . هناك حيث يقف الإنسان ، صباح مساء ، قبالة الله سبحانه ، ناذراً له حياته ، ووجوده وطاقاته ومعطياته كافة . . أي مؤمماً له الفرصة الوحيدة التي منحها الله إياه في هذه الأرض لكي يختبره ويبلوه . .

والإسلام ، بسبب من واقعيته ويسره ، يفتح الأبواب علىٰ مصاريعها أمام الإنسان المسلم لكي يتحقق بهذا الهدف العزيز فيجتاز الخطوط ، ويصل ، معانقاً مصيره المتفرّد السعيد . .

فمن حيث يمتلك هذا الإنسان مقدرة ، أو أبداعاً ، في جانب من جوانب الحياة ، يستطيع أن ينطلق الىٰ هدفه المأمول ، محتسباً ما يتمخض عن تلك المقدرة ، مؤمماً إبداعه في مجرى الفعل الإيماني الذي يتحرك صوب الله بانتظار لحظة المقابلة الفذة .

وهكذا يكون تأميم حياة المسلم بالمحبة لمن يفيض قلبه بالعشق ، وبالتفكير لمن يملك عقلاً فذاً ، وبصيرة نافذة ، وإدراكاً بعيداً . . وبالذكر لمن يخفق قلبه وعقله ووجدانه دوماً بإيقاع دائم واحد ، بوجود الله القادر المدبر ، المهيمن ، الفاعل ، المريد . . وبالعمل ، أياً كان هذا العمل ، لمن يبرع في هذا الجانب أو ذاك من جوانب

القدرة علىٰ الفعل ، والتفنّن ، والانجاز .. وبالجهاد لمن يقدر علىٰ حمل السيف والتجوال في أطراف العالم لمجابهة الكفر وجعل كلمة الله العليا .. وبالشهادة لمن يعرف كيف يقابل الموت فيمتطيه ركضاً إلىٰ الجنة!

ليس ثمة درب واحد لتأميم الحياة لله ، والتحقق بالإحسان .. بالتقابل المبدع مع الله .. وإنما هي دروب وطرائق شتىٰ .. كل حسب قدرته .. كل وفق ما منحه الله سبحانه من قدرات وطاقات .. فلا ﴿ يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[1] .

هكذا لم تكن هذه المحاولة ، كما لم تكن أية محاولة اخرىٰ في دائرة هذا الدين ، لغزاً محيراً وأمراً مستحيلاً ، وإنما هو الطريق المفتوح ، والهدف المحدد الواضح ، والأعانة علىٰ الوصول ، بشتىٰ الدوافع والمحفزّات ..

وهكذا وجدنا عبر تاريخ الإسلام الطويل مئات بل ألوفاً ممن هرعوا للسير نحو الهدف العزيز .. وهم رغم ما بذلوه من جهد وعانوه من مشقة ، كانوا يحسّون دوماً أنهم سعداء متوحدون ، قديرون علىٰ التحقق بالفـرح والأمن واثقون من أنهم سيصلون .. قصر الوقت أم طال ..

واليوم يغدو الهدف أكثر اغراءً ، رغم أنه يتطلب جهداً أكبر بكثير ، واصعب بكثير .. لكنها الثمرة الحلوة التي تفوح عطراً وتقطر عسلاً ، والتي تستحق الجهد والعناء في زمن الجدب والعتمة وعصر الآلام والمرارات ..

(١) سورة البقرة آية ,ـط.

دراما الحيـاة

إذا أردنا ان نكثف تجربة الحياة البشرية بعبارة واحدة . . الحياة المترعـة بالأخذ والرد . . بالخير والشـر . . بالانتصار والهزيمة . . بالفرح والحزن . . بالضحك والبكاء . . بالإنشراح والغم . . بـالإقدام والإحجـام . . بالانتشـار والإنكماش . . بـالفاعليـة والضمـور . . بالتمـاسك والانسحـاق . . وبسائـر الثنـائيـات والتناقضات التي تحفل بها حياة أي واحد منا . .

إذا بحثنا في تجارب الآخرين ممن لعبوا دورهم في مسرح العالم ووضعوا بصماتهم على صفحات الحركة التاريخية ، ودونوا سيرهم الذاتية ومذكراتهم . .

إذا قرأنا فكر المفكرين وفلسفة الفلاسفة وأدب الأدباء في عشرات المؤلفات ومئاتها وألوفها . .

إذا توغل كل واحد منا في تجربته الخاصة ومارس ما يسمى بالتأمل الذاتي أو الاستبطان لاكتناه سرّ التجربة ومفتاح الحركة في الأعماق . .

إذا فعلنا هذا وذاك بحثاً عن عبارة واحدة تكون بمثابة العلامة الأكيدة على صيرورة الحياة البشرية ونسيجها . . فإننا لن نجد ابدع واروع واعمق واشمل من الآية القرآنية ﴿ فإن مع العسر يسرا . . إن مع العسر يسرا ﴾[1] وذلك هو اعجاز الكلمات عندما تصدر عن صانع الكلمات والتجارب على السواء .

ثمة تطابق هندسي باهر بين الكلمة والتجربة وفق اشد الصيغ اقتصاداً وتركيزاً وقدرة على التعبير . .

إنها ـ في الحق ـ (دراما) الحياة ،ومقولتها التي يعرفها كل واحد منا والتي تجيء تجارب حياتنا بمذاقاتها الحلوة والمرة في كل يوم ، بل في كل ساعة ودقيقة لكي تكون مصداقاً لها وتأكيداً .

إن قراءة هذه الآية والتعمق في مدلولها يمنحنا ـ إذا صح التعبير ـ نوعاً من التطهير (الكاترسيس) الذي كانت تمنحه التراجيديات اليونانية للمشاهدين . . التعامل مع الحزن المنظور والعناء المشاهد لاستخراج الحزن والعناء من الأعماق ، وطردهما والتفوق عليهما . . إن لصوص التعاسة والشقاء والإنهزام في منحنيات نفوسنا ودروبها كثيرون جداً . . وما لم تتحول الأشباح إلى شخوص مرئية ، محددة الملامح والسمات ، فإنه يصعب القاء القبض عليها وسوقها للمحاكمة واصدار الحكم المناسب ، والإحساس ـ من ثم ـ بالأمن والسعادة والثقة واليقين .

إن قراءة هذه الآية تمنحنا نوعاً من الانشقاق على الذات . . من

---

(١) سورة الشرح، الآيتان ٥ـ ٦.

التحرر منها والإستعلاء عليها ، والقدرة علىٰ معاينتها من الخارج وهي تتقلب بين السعادة والعذاب .. بين الفرح والحزن .. بين النور والظلمة .. وحينذاك لن تأسرنا حشود المتناقضات ولن يسحقنا سيل لا أول له ولا آخر فيه الثنائيات التي تحكم حياتنا من أول لحظة للوعي وحتى يغيب الإنسان في التراب .

بل علىٰ العكس ، أن إدراك سرّ هذا التقابل المشحون في صميم الحياة وفي أعماق التجربة يمكن أن يقود إلى (الحكمة (التي جعلت حياة الإنسان معجونة بالثنائيات .

إنها بمثابة المحرك أو المحفِّز الذي يدفع حياة الإنسان صعداً صَوب الأحسن والأرقىٰ .. إنها بمثابة فرصة ممتازة للاختيار والإنتقاء ، وقائمة منوعة بالمفردات لن يفيد منها إلاّ االذين قدروا علىٰ فهم السر وصاغوا منها قصائد حياتهم المترعة بالقيم والكفاح والجهد والتعاليم .

وعندما تصدر مقولة كهذه عن خالق الإنسان جلّت حكمته فلنا أن نتصور مقدار الحرية التي تمنحها إيانا .. ونحن نظن ، لعجزنا وجهلنا وقصورنا ، أننا قد انتهينا لدىٰ كل نازلة ، وتفككنا عند كل مصاب ، وانسحقنا تحت كل ضربة ، وهزمنا إلىٰ الأبد أمام هذه المحنة أو تلك .

كلاّ فإن ما يقابل هذا في مجرى الحياة نفسها حشد آخر من معطيات الكسب والإنجاز والانتصار والتماسك والتحقق والتجاوز .. لمن يقدر علىٰ استلهام المصائب والنوازل ، ويتوغل في صميم المحن والضربات .. ويقبل التحدي ..

فقط لمن يدرك أن (دانيامو) الحياة البشرية ومفتاح قدرتها علىٰ التمخض هو هذا التقابل بل الأبدي بين العسر واليسر .

ليس ثمة « عسر » ينوء بكلكله علينا فيسحقنا إلىٰ الأبد . .

وليس ثمة « يسر » يفتح احضانه الأبدية فينسينا ويطغينا . .

ولكنه الشد والجذب الذي يجعل الشخصية البشرية في حالة وعي دائم ، وقدرة مستمرة علىٰ المجابهة والفعل والتجاوز والعطاء والإبداع . .

واذا كان بعض الكتاب الوجوديين في الغرب قد رأوا أن الإنسان مغبون إذ قدَّر عليه أن يؤخذ بسلسلة من الأفعال وردودها وأن يقيِّد بسلاسلها . . وإذا كان بعضهم الآخر قد أعلن بأن ضياع الإنسان يكمن في أنه يعيش أبدا حشداً من التناقضات النفسية . .

فإن الآية القرآنية بمنطقها المعجز تجيء لكي تكتسح هذه الرؤ ية «السوداوية» وتقدم بدلاً منها «موقفاً» شمولياً فاعلاً يكثف تجربة الحياة المعقدة المتشابكة بعبارة واحدة ، ويمنحها القدرة علىٰ التجدد والانبعاث والفاعلية . .

بالعبارة نفسها . . وصدق الله العظيم .

الصلاة المتحـدية . . .

ما أروع الصلاة عندما تمارس في صيغة التحدي!!

هل جرّب احدكم أن ينهض واقفاً من بين حشود المجتمعين في هذا الحفل أو ذاك ، لحظة سماعه النداء ، لكي يقف شامخاً في جانب من المكان ويؤدي صلاته أمام انظار مئات من الناس قد تدهش للموقف ، وقد تستنكره ، وقد تعجب به في سرّها ، وقد يكون من بينها من هو ملتزم بأداء الصلاة يوماً بيوم إلاّ أنه تكون هكذا أمام جموع الناس وفي حفل كبير يحمل اهميته .. وقدسيته؟!

هل جرّب أحدكم أن يخترق هذه القدسية الموهومة ، وأن يتخطىٰ الحواجز النفسية والإجتماعية والمادية ، لكي يقف ، بزهو حقيقي ، أمام الله وحده ، ويستمد منه القدرة التي تكسر الحواجز وتتجاوز المألوفات؟

إنها حقاً لتجربةٍ تملأ نفس الإنسان المسلم بالعزة والإستعلاء ، وهو يجد نفسه قديراً ، لحظة النداء ، علىٰ الاستجابة ، منفذاً علىٰ المكشوف مطالب النداء ومفرداته ، متحققاً بمغزاه ومعناه ؟

إننا نسمع المرة تلو المرة هذا النداء ، خمس مرات في اليوم ، لكن الإلف والعادة كثيراً ما تطمسان علىٰ القه وتغطيان علىٰ جمراته المتوقدة كالنار . .

حتىٰ تأتي اللحظة ، أو التجربة ، التي تتكسر فيها القشور ويغيب الألف والأعتياد وتتكشف الكلمات علىٰ حقيقتها كما صيغت أول مرة . .

في مناسبات جماعية كهذه ، يقل فيها المؤمنون ، ويكثر فيها خصوم الحق ، يمكن أن يحظى الإنسان المسلم بلحظة سعيدة ، متوقدة، كهذه، وهو يتلقىٰ الكلمات فيجد نفسه قديراً علىٰ الإستجابة . . قديراً علىٰ التحدي . .

الله أكبر . . الله أكبر . . فليس ثمة قوة في العالم ، بما فيها قوة هذا الحضور الجماهيري الموهوم ، إلا وتتضاءل وتنحسر أمام قوة الله فتفقد سحرها وهبتها .

أشهد أن لا إله إلّا الله . . فليس ثمة إلا الله وحده من يستحق الشهادة، ويوجب الطاعة ، ويفرض الحضور المرهوب . . ولن يكون أحد غيره ، كائناً من كان ، وأياً ما كان ، بقادر علىٰ ان يحجب عن الإنسان المؤمن حق التوجه لله وحده ، والتعبد له وحده ، والإستجابة لندائه وحده . .

أشهد أن محمداً رسول الله . . فها هو ذا الرسول المعلم يقودنا عبر الطريق ، دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة ، فإذا كنا نشهد حقاً برسالته عن الله فلنستجب للنداء ، ولنرجع قامتنا عالياً لكي تكون بالحجم الذي أراده لها رسول الله!

حيّ علىٰ الصلاة .. فها هي ذي اللحظة التي تتحتم فيها ، وها هو ذا النداء يحمل مغزاه الواضح ؛ صلة بالله الأكبر من أية قوة في العالم .. الواحد الذي تنحسر إزاء وحدانيته المطلقة ، وتتساقط كافة الربوبيات والصنميات.

حي علىٰ الفلاح.. وهل ثمة من فلاح يرجوه الإنسان أكثر من هذا الفلاح المتمثل بالذهاب لمقابلة الله لحظة النداء ، دونما تأخر أو تسويف من أجل السعي لكسب مثوبته ورضاه .. الكل ذاهب .. زائل .. إلا هذا !!

ويعود النداء لكي يذكر الإنسان ثانية بان الله أكبر ، وأنه لا إلٰه إلا هو !

حينذاك لن يكون بمقدور الإنسان المؤمن أن ينهض واقفاً فحسب ، وأن يجد مسلكاً ضيقاً صوب مكان يتيح له أداء الصلاة في وقتها فحسب، ولكنه يكون مستعداً أن يمشي علىٰ الرؤوس التي اعتادت أن تطأطىء للأوهام ، والتي ما قدرت يوماً علىٰ أن تكسر الحواجز المصطنعة وتستجيب لنداء الله ..

تلك هي متعـةَ الصلاة المتحدية ، ودفقها الروحي ، وامتلاؤ ها الوجداني ، وتحولها ـ كذلك ـ إلىٰ معادلة فكرية واضحة لا تقبل خطأ بأي شكل من الأشكال .

الصلاة عندما تقام بمواجهة اكثرية لا تعرف الحق ، أو هي تعرفه جيداً ، ولكنها تجبن عنه ، وتتردد إزاءه..

الصلاة عندما تكون شهادة منظورة ، واستجابة علىٰ المكشوف ،

لما يحمله النداء اليومي من معانٍ .

ويعرف الإنسان كم يخسر المصلّون وهم يفوتـون علىٰ أنفسهم فرصة فريدة كهذه ، فيؤجلون صلاتهم لحين انتهاء المناسبة وارفضاضهم الىٰ البيوت . .

إنهم في الحقيقة ـ سيخسرونِ مرتين . . مرة بتأخيرهم الأداء عن موعده المحدد ،ومرة اخرىٰ بتضييعهم فرصة التحدي من خلال شعيرة قد تبدو في الأحوال الإعتيـادية مجرد ممارسة روحية صرفة . . ولكنها هنا قد تتجلىٰ اكثر علىٰ حقيقتها ؛ رفض للعبودية أية كانت صيغها وإشكالها . . وتحرّر وجداني حتىٰ الأعماق !

التكتيك على الدين

عندما تجد بعض التجارب « الإيديولوجية » المادية نفسها مضطرة للرجوع إلى الدين في لحظات المصير ، وعبر الأزمات التاريخية ، كما فعلت روسيا أبان الهجوم النازي الكاسح ، لمجابهة الخطر باطلاق الطاقة الإيمانية في نفوس الجماهير وتحفيزها على المقاومة والصمود .

فما الذي يدل عليه هذا سوى تأكيد مشهود على عمق الحقيقة الدينية في نفس الإنسان ، وثقلها ، وتفوقها على كافة محاولات المحق الايديولوجي وعمليات غسيل الدماغ ؟

وعندما ينتفض الحسّ الديني وينتشر كالكهرباء عبر جيل كامل من ابناء دولة ماركسية كبولندة ، دأبت لأكثر من أربعة عقود على استئصال زي اثر للدين في نفوس الجماهير . . بقوة السلطة . . بتأثير أجهزة الإعلام . . بالتوجيه التربوي ، وبكافة وسائل التأثير والاستئصال . . حتى كاد المرء أن يصدق بأنه ليس ثمة رجوع بعد اليوم لأي ظاهرة من ظواهر التدين جيل انبتّت جذوره بالكلية عن الدين الذي انتمى إليه أباؤه وأجداده ، بل إنه اصبح يعاني ـ إذا

صحّ التعبير ـ من فقدان الذاكرة أزاء كل مفردات الدين ، وتجاربه ومضامينه . .

فما الذي يدل عليه هذا سوىٰ أن الظاهرة الدينية اقوىٰ ، واعمق ، وأكثر امتداداً في عروق الإنسان ، وتعاشقاً مع نسيجه العقلي والروحي والوجداني من أية عقيدة اخرىٰ تسعى ، تحت أي شعار كان ، لكي تزيح الدين وتحل محله!

والقيادات الماركسية تعرف جيداً أن أي إنحناء أمام الظاهرة الدينية ، أو قبول ؛ بمرورها ، ولو جزئيات وتفاريق ، يرتطم في الأساس مع الأيديولوجية ، ولذا يتحايلون علىٰ هذا التناقض فيسمّون المحاولة (تكتيكاً (ويقولون بأن (التكتيك (هو غير (الستراتيجية (، فهذه الأخيرة ترسم للمسائل الأساسية بعيدة المدىٰ ، وتستمد خطوطها وتكويناتها من الأيديولوجية نفسها ، إما (التكتيك (فهو إجراء موقوت قد تدفع اليه الضرورات لدرء خطر ما ، أو تحقيق مصلحة ، ثم هم ـ بعد ذلك ـ في حلّ من الأستمرار عليه ، خاصة وأنه قد لا ينسجم ويتناغم مع الإيقاع العام للايديولوجية !

التكتيك علىٰ الدين . . أي التعامل المرحلي الموقوت من أجل ما يتصورونه أكثر ديمومة وثقلاً وامتداداً . .

ثم إذا بالتجربة تصفع هذا التحليل ، وإذا بالدين يلوي عنق التكتيك ويكسر الأيدي التي تسعىٰ من خلاله الىٰ العبث بالمقدسات الراسخة في ضمير الإنسان وإذا به ـ أي الدين ـ يتجاوز هذا لكي يقف متحدياً الأيديولوجية نفسها صارخاً بحماتها وسدنتها ، أن

يفتحوا في جدرانها الصمّاء نوافذ وأبواباً لدخوله ، والاّ عصف بها الدين ، حيث يكون الجمهور ، رغم كل محاولات الخداع والتضليل والإغراء والتخويف هو الحكم الستراتيجي عبر لحظات المصير . . أيام المآزق التاريخية الكبرىٰ ، وحيث تكون روح الإنسان وإرادته المؤمنة هي الأداة الأكثر قدرة علىٰ استخدام السلاح ومجابهة التحديات .

عبر عقود محدودة من الزمن تشهد التجربة السوفيتية ثلاثاً من الانتفاضات ، أو الضغوط الدينية من أجل العودة المحتومة إلىٰ الجذور . إحداها جاءت باختيار ظاهري للقيادة الروسية أيام « ستالين » عندما فتح الأبواب الموصدة وأتاح للدين المعتقل أن يخرج لكي يقاتل الألمان في الشوارع والساحات . ولكن الأمر لم يكن اختياراً في حقيقته إنما هو الانحناء المحتوم امام ثقل الظاهرة ، والاعتراف الضمني بقدرتها علىٰ الفعل التاريخي ، والمجابهة والتنفيذ .

وجاءت ثانيتها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي ذات الأكثريات المسلمة متمثلة بمطالب ملحة تقدم بها أكثر من قائد أو زعيم شيوعي هناك في أن تفسح الدولة مكاناً أكثر اتساعاً للممارسات الدينية ، وأن تعترف ـ علىٰ الأقل ـ بالميزات الدينية الخاصة للملايين من مسلمي هذه البيئات ذات الأصول الإسلامية الحضارية العريقة .

وتنجح المحاولة ، وتعبر عن نفسها بنصوص جديدة تنضاف لدستور الدولة .

أما الثالثة فقد جاءت من بولندة ؛ حركة عمالية شاملة خفق

نبضها بالدين والحرية ، وجابهت طغيان السلطة دونما سلاح غير سلاح الإيمان .

ومهما يكن من أمر النتائج التي تمخضت ، وستتمخض ، عن الحركة ، فإنها تجيء بمثابة تأكيد لا يقبل جدلاً على ثقل الظاهرة الدينية وحضورها في اعماق الإنسان ، وعلى أنها تنتظر اللحظات المناسبة لكي تطل برأسها ، وتقول لكلمتها في مجرى التغيرات والأحداث .. رغم كل العوائق ومحاولات الطمس والأستئصال ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾[1].

---

(1) سورة الروم آية ٣٠.

رؤيـة تربوية متكاملة

يتميَّز الإسلام، من بين سائر المذاهب والأديان، بنظرته الشمولية ومفهومه المتكامل للعملية التربوية ، فهو يسعىٰ إلىٰ تنمية وإغناء مقومات الشخصية كافة ؛ فكرية وروحية وجسدية ، ومحاولة استجابتها ودفعها إلىٰ حدود التوتر الأقصى القدير علىٰ تقديم أكبر قدر من العطاء ، مع الحفاظ الدائم على حالة التوازن الصعب بين الجوانب الثلاثة في تكوين الشخصية .

فبينما تجنح بعض المذاهب والأديان باتجاه التربية الروحية بعيداً عن الاهتمام بمطالب العقل والجسد ، وبينما تجنح مذاهب وأديان أخرىٰ باتجاه التربية العقلية بعيداً عن الاهتمام بمطالب الروح، أو باتجاه التربية الجسدية بعيداً عن الاهتمام بمطالب العقل والروح ، نجد الإسلام من خلال كتاب الله وسنة نبيه صلّى الله عليه وسلم ، يوجه اهتمامه في القطاعات الثلاثة ؛ الروح والعقل والجسد ، ويسعى إلىٰ تكوين الإنسان المتوازن الذي يتمتع بسوّية نفسية قديرة علىٰ الفعل والإبداع والعطاء ، وهي النظرة التي اكدتها ودعت اليها احدث النظريات التربوية والدراسات النفسية .

ولقد أراد الإسلام بعملية التغيير الذاتي التي دعا إليها القرآن بقوله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] ، تكوين الإنسان الفعال الذي هو بمثابة حجر الزاوية المتين في صياغة المجتمع المسلم الذي انيطت به الأمانة الكبرىٰ ، وحمل مسؤولية تغيير خرائط العالم ، والشهادة علىٰ مسيره ومصيره . . ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[2] .

وإننا لنلمح هذه الرؤية التربوية المتكاملة بوضوح في مواقف رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وتعاليمه وأوامره ، ومن خلال القدوة (النموذج) التي صاغها بنفسه وضرب بها مثلاً يسير علىٰ هديه المؤمنون كافة في كل زمان ومكان .

لقد مارس الرسول صلّى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم جهداً شاقاً من أجل التحقق بالتوازن والفاعلية ، فبلغوا بالتعبد الدائم والتقوى العميقة قمة التجربة الروحية ، وبلغوا بالتأمل العميق والنظر الدائب في ملكوت السموات والأرض مراحل بعيدة في النشاط العقلي ، وبلغوا بالرياضة الجادة والممارسات القتالية والفروسية المستمرة قمة التمكن الجسدي .

ويجب أن نلاحظ هنا أن هذا التقسيم بين العقل والروح والجسد إنما هو لغرض التوضيح فحسب ، أما في الواقع ، وكما علمنا الإسلام بتجربته الفذة التي تعرف كيف تتعامل مع النفس البشرية ،

---

(1) سورة الرعد آية ١١ .

(2) سورة البقرة آية ١٤٣ .

فإنه ليس هناك فاصل بين هذه الممارسات جميعاً في صميم النفس ، فهنالك دائماً تأثر وتأثير بين مكونات الإنسان كافة ؛ روحية وجسدية وعقلية ، ولذلك نجد أن أية ممارسة في الإسلام تحاول أن تمتد إلىٰ هذه المكونات جميعاً وترفض العزل والتمييز بين واحدة وأخرىٰ .

إن العبادة في الإسلام ، رغم إنها تمسّ الجانب الروحي ، فإنها لا تقف عند هذا الحد ، ولكنها تمتد لكي تتعامل مع العقل والجسد ، فضلاً عن الروح ، ولكي تؤدي دورها التربوي في تكوين الشخصية المؤمنة السوّية .

ولنتذكر « الصلاة » وكيف أن اداءها يعتمد حالة من التوازن المتوافق بين الاستجاشة الروحية ، والتأمل العقلي ، والرياضة الجسدية .

ولنتذكر « الصيام » وكيف انه يحقق نوعاً من النقاء الروحي والصفاء الذهني والضبط والتصعيد الجسديين .

ولنتذكر « الحج » وكيف أنه يجيء بمثابة رحلة إلىٰ الله ثلاثية الأبعاد ؛ بالروح والعقل والجسد .

إننا ، حيثما تلفتنا ، وجدنا التعبّد ، وهو واحد من ممارسات إسلامية لا يحصيها عد، يمتد إلىٰ كل مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية ، الخاصة والعامة ، الفردية والجماعية ، المادية والروحية . . تماماً كما تمتد الدماء وتسري في أوصال الجسد البشري وخلاياه.

إنه واحد من المواقف التي تتعامل مع الإنسان بمكنوناته كافة ،

وتعرف كيف تربي وتنمّي هذه المكونات بقدر من التناسب المحكم والتوازن المرسوم .

ذلك هو جانب من رؤ ية الإسلام التربوية التي لم ترق إليها أشد النظريات والمذاهب حداثة وعمقاً ﴿ صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ [1] و﴿ الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾[2].

(١) سورة النمل آية ٨٨.
(٢) سورة آل عمران آية ٥ .

شيوعي أبيض ... شيوعي أسود

أمر معروف أن تكون هناك تفرقة عنصرية بين الأبيض والأسود في بيئة رأسمالية ، كواحدة من الممارسات ةاللاانسانية الظالمة التي تعج بها تلك البيئة ، لكنه ليس معروفاً في بيئة شيوعية يدعو ابناؤ ها إلى العدل والمساواة في كل شيء ، وسيتنكرون كل ما من شأنه أن يمس قناعاتهم التي تبلغ حد القدسية ! فكيف إن كانت هذه التفرقة تنصبُّ على لون الجلد الذي لا اختيار للإنسان فيه؟

(ريتشارد رايت) ، الأديب الروائي الأمريكي الأسود ، الذي نعرفه جميعاً ، أتيح له أن ينتمي للحركة الشيوعية في الولايات المتحدة في ثلاثينات هذا القرن بحثاً عن العدل والمساواة ، ولكنه ما لبث أن ارتطم بحشدٍ من التناقضات الجأته في نهاية المطاف إلى التخلي عن انتمائه بعد إذ رأى عدم قدرته على تحقيق الأمل المرتجى في اخصّ ما يمس الإنسان الأسود .

يحدثنا الرجل عن واحدة من هذه التناقضات ؛ تفرقة عنصرية بين الأبيض والأسود ضمن التنظيم الشيوعي نفسه !! وكأنها - أي التفرقة - واحدة من حتميات التاريخ التي حكى عنها ماركس ورفيقه

انغلز . وليعذرني القارىء إذا جعلت « ريتشارد رايت » نفسه يتكلم حتى نهاية هذا المقال الموجز دون أي تعليق ، لأن المسألة أوضح من أن تضاف إليها كلمة واحدة !! سوى القول بأن على المرء أن يتذكر كيف كان ذوو الجلود السوداء يعيشون في أرض الإسلام .. وكيف كان المسلمون يعاملون منتمياً جديداً كبلال !!

(جاء ربيع عام ١٩٣٥ وبدأت خطط الأعداد لمؤتمر الكتاب الأمريكيين اليساريين .. سافرت مع بعض المندوبين إلى نيويورك . وصلنا في المساء وسجلنا اسماءنا لجلسات المؤتمر .. وسألت عن معدات النوم وأماكنه فبدا الأرتباك على اعضاء نادي « جون ريد » في نيويورك ، وكلهم شيوعيون من البيض . وانتظرت بينما كان أحد الشيوعيين البيض يطلب شيوعياً آخر أبيض وينتحي به جانباً لكي يتباحثا في كيفية إيجاد مكان لنومي ، أنا الشيوعي الزنجي الأسود . لقد كنت خلال رحلتي قد نسيت أنني أسود .. والآن وأنا أرى رفيقاً ابيض يتحدث بعصبية إلى آخر عن لون جلدي بدأت أشعر بالإشمئزاز .. وأخيرا عاد الرفيق الأبيض ليقول ؛ لحظة واحدة أيها الرفيق ، سوف أجد لك مكاناً . فسألت ؛ ولكن اليست لديكم أماكن جاهزة ؟ إن امثال هذه الأمور تجهز عادة من قبل . فقال معترفا بنغمة ودية ؛ نعم هذا صحيح إن عندنا بعض العناوين هنا ، ولكننا لا نعرف الأشخاص ، ولعلك تفهم ما اعني فقلت وأنا أصرف بأسناني ؛ نعم ، افهم ما تعني .

قال وهو يلمس ذراعي ليطمأنني ؛ انتظر دقيقة فقط فسوف اجد شيئاً .

فقلت محاولاً ألا أجعل الغضب يبدو في صوتي ؛ اسمع ، لا داعي لأن تزعج نفسك . .

فقال وهو يهز رأسه بتصميم ، لا ، لا ، إن هذه مشكلة وسوف أجد لها حلاً .

فلم استطع إلا أن أقول ؛ ما كان ينبغي أن تكون مشكلة .

فاستدرك يقول ؛ أنا ، أنا ما قصدت هذا!

فجعلت في سريرتي العن الموقف ، وكان بعض الناس يقفون قريباً ويلاحظون كيف أن شيوعياً أبيض يحاول أن يجد لرفيقه الشيوعي الأسود مكاناً ينام فيه ، فأحسست بالخزي . وبعد بضع دقائق عاد الشيوعي الأبيض زائغ النظرات يغطيه العرق ، فقلت له ؛ لعلك وجدت شيئاً ؟

فأجاب وهو يلهث ؛ لا . ما وجدت شيئاً بعد ، ولكن انتظر لحظة فسوف اتحدث الىٰ شخص اعرفه ، اعطني قرشاً كي استعمل الهاتف .

قلت ؛ لا تزعج نفسك . سوف أجد لنفسي مكاناً ، ولكني احب ان اضع حقيبة ملابسي في مكان ما إلىٰ أن ينتهي اجتماع الليلة .

فقال بلهفة لم يفلح في اخفائها ؛ اتعتقد حقاً أنك تستطيع أن تجد مكاناً ؟ قلت ؛ طبعاً ، استطيع .

ولكنه ظل غير متيقن . لقد كان يودُّ أن يساعدني، ولكنه لم يكن يدري كيف . وأخيراً اخذ حقيبتي ووضعها في إحدىٰ الغرف ،

وخرجت أنا إلىٰ الطريق اسائل نفسي أين يمكن أنني أن أنام هذه الليلة . وقفت علىٰ أرصفة نيويورك وأنا أحمل جلدي الأسود ولا أكاد احمل نقوداً . . وعند باب قاعة « كارينجي » حيث تم الاجتماع قدمت أوراق اعتمادي ودخلت ، ولكني وجدت نفسي لا استمع إلىٰ خطبهم وجهادهم وإنما اتساءل ؛ لماذا اتيت ؟ وبعد ذلك خطوت إلىٰ الرصيف اشغل نفسي بالتطلع إلىٰ وجوه الناس إلىٰ أن قابلت عضـواً في « نادي شيكاغو » فسألني ؛ ألم تجد مكاناً بعد ؟ قلت ؛ لا ، ولقد كنت أود أن أجرب دخول احد الفنادق لولا أنني لست في حالة تساعدني علىٰ أن اتجادل مع كاتب الفندق حول لون جلدي ! قال ؛ يا للعجب ! انتظر دقيقة ، ثم انطلق ولم يلبث أن عاد بعد لحظات مع امرأة سمينة بيضاء ثم قدمني إليها فقالت ؛ تستطيع أن تنام الليلة في مكاني .

وسرت معها إلىٰ حيث قدمتني إلىٰ زوجها ، فشكرتهم علىٰ كرمهم وذهبت للنوم علىٰ سرير صغير في المطبخ . . ثم انطلقت صباحاً إلىٰ الرصيف وجلست علىٰ مقعد هناك ، لكي أكتب بعض نقاط لأجل المناقشة دفاعاً عن النوادي اليسارية (التي عقد الاجتماع للتباحث بصدد حلّها) ولكن مشكلة النوادي في هذه اللحظة بدت لي تافهة ، والمشكلة التي بدت لي علىٰ جانب من الأهمية هي ؛ هل يستطيع الزنجي في هذا البلد اللعين أن يحيا حياة قريبة من حياة البشر »؟[1].

---

(١) عن (الصنم الذي هوىٰ(لارتر كوستلر ورفاقه ، ترجمة فؤاد حمودة ص ١٦٩ـ ١٧١ .

ظاهرة تدعو للتفاؤل

في العقود الأخيرة من هذا القرن برز على الساحة حشد كبير من الكتاب الذين عالجوا موضوعات إسلامية من هذه الزاوية أو تلك ، وأخذ عددهم يتزايد بمرور الوقت ، ومؤلفاتهم تفرض وجودها في ميادين الفكر والثقافة المعاصرة . .

بعض هؤلاء الكتاب تخصص بالكتابة في الإسلام وحده ، وقدم للمكتبة الإسلامية عدداً من المؤلفات لم يتجاوزها للكتابة في حقول اخرى . . وبعضهم الآخر اكتفى بتأليف الكتاب والكتابيين والثلاثة عن الإسلام ، بينما يممت مؤلفاته الأكثر عدداً صوت وجهات اخرى بعيدة عن دائرة الفكر الإسلامي .

مهما يكن من أمر فإن تزايد الكتاب الإسلامي ، وانتشار الكتاب الذين يكتبون عن الإسلام على هذا المدى الواسع من خارطة الفكر المعاصر، ليعدّ ظاهرة تدعو بحد ذاتها للتفاؤل والتقدير، إذ ليس بمقدور عقيدة أو مذهب لا يملك قدراً كافياً من الحيوية والتأثير والانتشار ، أن يتحرك للحديث عنه ، والكتابة فيه ، وتحليل معطياته

هذا الحشد الزاخر من الكتاب والأدباء والمفكرين .

ولكن الذي يحدث ، ولا يزال ، إنه بعض هؤلاء الكتاب لم يكونوا يملكون رؤ ية نقية واضحة ومتكاملة الجوانب عن الإسلام ، ليس لأنهم يتعمدون هذا كما يفعل خصوم الإسلام ، ولكن لأن مواردهم الثقافية وبيئاتهم التي تشكلوا في مسالكها ، وطبيعة قراءتهم ومتابعاتهم ، بل - ربما - نوازعهم واذواقهم وميولهم الشخصية كانت تجعلهم - في بعض الأحيان - غير قديرين علىٰ تمثّل الفكر الإسلامي بصيغة النقية الواضحة ، وتصوراته الدقيقة المتكاملة .

وواضح من هذا أننا نتحدث هنا عن أولئك الذين كتبوا عن الإسلام من مواقع الخصومة والبغضاء ، بل عن أولئك الذين أثار الإسلام دهشتهم واعجابهم ، بما يتضمنه من معطيات تفرض قناعاتهم علىٰ كل عصر ، وتبهر العقول المتألقة الذكية ، الأمر الذي جعل بعضهم ينتهي لإلىٰ الألتزام بهذا الدين ، والانتماء إليه عقيدة وشريعة وسلوكاً .. لكنهم - مع ذلك - لم يقدروا ، رغم تألق مؤلفاتهم وامتلاكها قدراً كبيراً من التحليل المقنع والتأثير المطلوب ، علىٰ تمثل جوهر هذا الدين ، أو يمتلكوا ناصية الرؤ ية الدقيقة الصائبة لمقولاته ومعادلاته .

فهل يحتم علينا هذا أن ننفي مؤلفاتهم تلك من المكتبة الإسلامية المعاصرة وندعو إلىٰ رفضها وعدم الإفادة من تيارها الخصب المترع بالمعطيات المؤثرة ؟

ثمة من يقول بهذا ، خاصة إذا كان أولئك الكتاب ممن لم يلتزموا بالإسلام ، وكانت لهم حياتهم وتجاربهم البعيدة عن مطالبه

والزاماته . . أو ممن كان ماضيهم على الأقل ، أو مؤلفاتهم الأخرى ، تبحر باتجاه مناقض لما طرحوه في مؤلفاتهم الإسلامية .

ولكن الواقع يجب أن يكون غير هذا على وجه التأكيد . . ذلك ان كلا منهم يمثل خبرة غنية يتحتم الإفادة منها ما وسعت الإفادة . . خاصة وأن هؤلاءالكثيرين من هؤلاء تحولوا ، بمرور الزمن ، وتركّز الوعي ، من النقيض إلى النقيض ، وجاءوا إلى الساحة الإسلامية لكي يكتبوا وهم على علم تام بجوانب اعجازها ، وقوة بنيانها ، بالمقارنة مع الأفكار والعقائد والمذاهب المضادة التي كانوا قد انتموا إليها يوماً وخبروها جيداً .

هذا إلى أن كتاباتهم تملك قدراً كبيراً من الحيوية والإثارة بسبب من أنها تتمخض عن تجربة حيوية معاشة لا يزال اصحابها يحيونها ، ويكتوون بنارها أو يحسون ببردها وسلامها .

ومهما يكن ماضي هؤلاء ، ومهما يكن توجه مؤلفاتهم الأخرى ، ومهما تضمنت كتاباتهم الإسلامية نفسها من دخل وسوء فهم وقلة تمثل لمعطيات الإسلام ، فيكفيها اهمية ونفعاً إنها تمنح القراء قناعات منظورة باحقية هذا الدين في الإستمرار وتفوقه على المذاهب والعقائد الأخرى بما لا يقبل مقارنة أو قياساً ، بدليل هذه الحشود من المفكرين اللامعين الذين جذبهم الإسلام فكتبوا عنه بهذا القدر من الإعجاب والتقدير .

ويكفيها أهمية ونفعاً أنها تملك ذلك القدر من التأثير الذي يكسب اعجاب القارىء المعاصر ويقوده ، في نهاية الأمر إلى الإسلام ، أو يقربه منه على اقل تقدير .

ثم إن هذه الكتابات تكمّل بشكل من الأشكال ، معطيات الإسلاميين أنفسهم ، ذوي الرؤية النقية الواضحة ، وتملأ بعض الفجوات بالأولويات .

بل إن بعض هذه الكتابات بطرحها افكاراً جديدة قد لا يألفها الكتاب الإسلاميون تفتح باباً واسعاً للحوار الخصب ، كثيراً ما يؤول إلىٰ مزيد من العطاء الممحّص والنتائج الطيبة .

وحتىٰ لو كانت قلة من أولئك الكتاب مصرّة علىٰ مواقفها الخاطئة في الفكر أو السلوك ، فإننا ـ علىٰ اسوأ الأحوال ـ نستطع أن نطبق عليها القاعدة المعروفة التي قال بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي أن « اثمهم عليهم ونفعهم لنا » .

نعم وبكل تأكيد ، فإن مردود هذه الكتابات ، علىٰ ما قد يتضمنه من سلبيات ، هو أكبر بكثير واجدىٰ بكثير من نفيها من ساحة الفكر الإسلامي المعاصر .

فكيف بشن الحرب عليها كما قد يحلو لبعض الكتاب الإسلاميين أنفسهم ؟

العدل وخطوط الدفاع الأربعة

يبدو أن ضمانات العدل منتشرة بالقسطاس ، وبشكل مرسوم ، في ساحة الكون وفي صميم الحياة البشرية .

ذلك أن العدل نفسه واحد من اعمدة الوجود البشري في العالم ومبرِّر خطير من مبرِّرات الحياة ، بما أنها فرصة جدية هادفة وليست عبثاً أو فوضى . ولنا أن نتصوَّر كيف ستغدو هذه الحياة لو أنعدم العدل أو افتقد ضماناته التي تمكنه من الديمومة والتحقُّق .

إن قوى الظلم كثيرة وقديرة ، وهي تملك اسلحة عاتية للتمكن في الأرض كواحدة من صيغ التحدي الذي كان على الإنسان أن يجابهه لكي يشتد ساعداه وتقوى عزيمته ، ولكي تتحرك الحياة ويتدفق الإبداع .

ولكن هذه القوى ليست مطلقة السراح تفعل ما تشاء دون أن تجد في طريقها من العقبات والمتاريس ما يفت في عضدها ويشلها احياناً عن العمل .

لقد شاءت إرادة الله سبحانه أن يجابهها بالعدل، وأن يمد خطوطاً معززة من «الدفاع» لحماية هذا العدل وإنزال القصاص بالظالمين . . فحينما قدر هؤلاء على اجتياز احد الخطوط والتفوق عليه ، حيثما كان عليهم أن يجابهوا خطأ آخر قد يصعب اختراقه .

وهذه المعركة لا تقتصر على الأرض وحدها ، ولا تتوقف عند حدود الحياة الدنيا ، ولكنها تمتد إلى السماء ، وتتسع لكي تبلغ الآخرة .

وهكذا فإن الظلم سيجد نفسه محاصراً مقهوراً ، طال الوقت أم قصر ، وسيجد العقاب العادل بانتظاره هنا في الأرض أو هناك في السماء .

وإذ كانت الحياة الأخرى هي الدوام والإمتداد والأبدية، وكانت حياتنا الدنيا هذه فرصة قصيرة ، منصرمة ، فانية ، فإنه ليس مهماً في المنظور الإيماني أن يُستعجل على حساب الظالم هنا ، أو أن يعتبر افلاته من القصاص في هذه الحياة بمثابة الخلاص النهائي .

ثم إن هذا التصوّر لا يحمل أي بعد سلبي كما قد يتوهم البعض ، فليس ثمة في الإسلام أية دعوة لالقاء السلاح والكف عن مجابهة الظلم في العالم بانتظار يوم الحساب . .

على العكس تماماً ، فإنه ما من دين يدعو لاستمرار المعركة منذ اللحظة الأولى وحتى النهاية كالإسلام ، ويكفي أن نعرف جانباً من حقيقة الجهاد واهدافه ، لكي نتأكد من ذلك ، بل يكفي أن نطالع حديث الرسول صلّى الله عليه وسلم «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة» .

لكي تتبدىٰ لنا الحقيقة اوضح من أن يقدر أحد علىٰ طمسها كائناً من كان .

فليس ثمة مكان في تصورنا مطلقاً لعبارة الماديين المعروفة « الدين أفيون الشعوب » وليس ثمة مبرر ـ حتىٰ ـ لتذكرها .

إنما يطرح التصور الإسلامي رؤيته عن العدل في آفاقها الواسعة الممتدة في الزمان والمكان ، لكي يؤكد واحدة من الحقائق الأساسية في نسيج هذا التصور وهو حتمية تحقق العدل كقيمة خطيرة من القيم التي يقوم عليها بنيان السماوات والأرض ، بل إن هذا التصور هو الذي دفع المسلمين ـ ولا يزال ـ إلىٰ الالحاح في ملاحقة الظلم ، والاستشهاد دون العدل ، ما دام أن هذا الفعل الجهادي سيؤتي ثماره عاجلاً أم آجلاً .

فالجزاء آت ـ لا محالة في المنظور الاسلامي ، والإيماني عموماً ، وليس ثمة لا جدوىٰ تتحكم بالإنسان وتضيّع فاعليته وجهده في سبيل اهدافه الكبرىٰ .

إن الأمر ها هنا يبدو محفزاً إيجابياً علىٰ العكس تماماً مما يتوهمه البعض أو يوهم به الآخرين .

وخطوط الدفاع التي المحنا إليها في بدء الحديث تبدأ بالإنسان نفسه وتمتد إلىٰ المؤسسات التي تنظم حياته ، ثم تتجاوز ذلك صوب الطبيعة نفسها بما تتضمنه من سنن وطاقات ونواميس .

ومن وراء هذه الخطوط الثلاثة ، ومن قبلها وبعدها ، ومن خلفها وبين يديها ، تقف إرادة الله التي لا راد لها لكي تحق الحق وتزهق

الباطل وتمكن للعدل في الأرض والسماء .

فإذا حدث وأن افلت الظالم من عقاب « ضميره » المركوز في جبلته وتجاوز خط الدفاع الأول هذا عن العدل ، فإنه سيجد نفسه محاصراً بالخط الثاني ؛ النظم والمؤسسات التي تواضعت عليها المجتمعات البشرية لملاحقة الظالم وكفه عن الأذىٰ وإنزال القصاص العادل به ، وتحقيق هذا الجانب أو ذاك من جوانب العدل في العالم .

لكن هذه النظم وتلك المؤسسات لم تكن يوماً تملك قدرتها الكلية علىٰ تحقيق اهدافها وتنفيذ القصاص بمن يستحق ، وحماية العدل من العدوان . وكثيراً ما حدث وأن عجزت عن مهمتها وتمكن الجناة من الافلات لكي يواصلوا العدوان . وحينذاك قد يكون وقفهم عن المضي إلىٰ اهدافهم المضادة للإنسان عند خط الدفاع الثالث ؛ السنن الطبيعية التي يعجز ابن آدم احياناً عن اختراقها بالباطل ، والتي قد تصبر علىٰ التجاوز ولكنها ما تلبث انْ تتحرك ـ بأمر الله ـ لكي تضرب ضربتها وتنزل قصاصها العادل بالمستحقّين .

وها هنا ـ أيضاً ـ قد نجد الكثيرين ممن يقدرون علىٰ الافلات ويجتازون خط الدفاع الثالث منتصرين . ولكن أنىٰ لهم اجتياز الخط الأكبر ، والأعمق ، والأكثر امتداداً وشمولاً ؟

إرادة الله ، ورقابته ، وهيمنته علىٰ كل صغيرة وكبيرة ، الإرادة التي لا يعزب عنها مثقال ذرة في السماوات والأرض ؟

إن الظالم قد يفلتِ من ضميره بعد أن يتيبَّس هذا الضمير ويفقد وظيفته ، وقد يفلت من المؤسسة أو النظام ذي الرقابـة النسبية

والقدرات المحدودة مهما امتلك من وسائل وتفنن في استخدام الأساليب .. وقد يفلت من عقاب السنن الطبيعية ويمضي الىٰ هدفه دون أن يعوقه شيء منها .

ولكنه لن يقدر علىٰ الافلات من قبضة الله !!

وقد يطول المدىٰ بين الفعل الظالم والقصاص العادل فيتوهم البعض أنه ليس بنازلٍ أبداً ..

ولكنه نازل بالمجرمين .. يقيناً ..

فالله سبحانه قد يمهل الظالم ، لهذا السبب أو ذاك ، ولكنه لا يهمله حتى لو التجأ إلىٰ نفق في الأرض أو ابتغىٰ سلماً في السماء .. ثم هو سبحانه إذا اخذ الظالم فلن يفلته ابداً ..

ومن خلال هذا التصوّر الإيجابي يطمئن الإنسان المؤمن ولا تذهب نفسه حسرات وهو يرىٰ عشرات ، بل مئات المجرمين والوفهم ، ينفذون بجلدهم من العقاب ويموتون مطمئنين .

فهناك بعد الموتة الأولىٰ بعث ونشور .. وحساب عسيرا!

الإنسان موقف

الإنسان « موقف » .. وإلا فما الذي يميزه عن الحشرات والأنعام ؟

ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناس ، علىٰ مرّ الزمان واختلاف المكان ، لم يتخذوا موقفاً ، بل إن هذا لينطبق علىٰ الأكثرية الساحقة .

فحتىٰ تلك الملايين التي تنتمي إلىٰ هذا الدين أو ذاك ، لا تنتمي اليه موقفاً تختاره وتلتزمه ، ولكنه تقليد يجري فيه الأبناء علىٰ منوال الآباء . ونحن ننظر إلىٰ اقرب الناس الينا .. مئات والوف من المسلمين ، سموا أنفسهم بالمسلمين ، وحسبوا بحكم الضرورة الجغرافية علىٰ الإسلام ، ولا شيء وراء هذا وذاك ، فإن علاقتهم بالإسلام ليست علاقة التزام ، ليست موقفاً عقيدياً بحال من الأحوال .

وما يقال عن المسلمين يمكن أن يقال عن اليهود والنصارىٰ والبوذيين واتباع الديانات والمذاهب الأخرىٰ .

والمذاهب الوضعية نفسها لا تنجو من هذه الظاهرة ، فإن الأجيال الشيوعية التالية علىٰ رواد الحركة البلشفية في الاتحاد السوفيتي ، علىٰ سبيل المثال ، أو أي من الأقطار الشيوعية في العالم ، لا تدين بالفكر الماركسي عن اختيار ذاتي أو موقف تتخذه بقناعاتها والتزامها ، وإنما هو التقليد الذي تساق إليه طواعية أو كرهاً ، الأقلة قليلة بطبيعة الحال .

ومهما يكن من أمر ، فإن هنالك في مقابل هذا ، وفي نسيج كل مجتمع ، طلائع من الناس كانت تجد نفسها ملزمة باتخاذ موقف ما من اجل ان تكون بمستوى انسانيتها .

ومنذ اللحظات الأولىٰ التي هبط فيها الىٰ العالم ﴿ تلقى آدم من ربه كلمات ﴾[1]، وسمع النداء واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فأما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[2].

دعوة واضحة صريحة لآدم ، وذريته من بعده ، كي تتخذ موقفاً ، تنتمي للهدىٰ القادم من السماء ، إذا ما أرادت تجاوز الخوف والحزن والضياع . .

ولم تكن هذه الدعوة لاتخاذ الموقف الملائم قسرية ، ولا سعت لارغام الإنسان علىٰ التزامها بالعنف والإكراه ، وإنما هي الحرية التي

---

(١) سورة البقرة آية ٣٧.

(٢) سورة البقرة آية ٣٨.

تليق بالإنسان والتعاليم التي توازي هذه الحرية من أجل ألا يتعرض للضياع في هذا العالم .

وله بعد هذا أن يلتزم ، أو أن يظل بلا موقف ولا التزام فإنه هو الرابح وهو الخاسر ، في الحالين .

وبمرور الوقت أخذ يتبينّ أن المشكلة لا تكمن فقط في عدم الانتهاء ، في رفض اتخاذ موقف ما والالتزام به ولكن ـ ايضاً ـ في اختيار عقيدة أو فكرة خاطئة .. واتخاذ موقف ليس في نهاية التحليل لصالح الإنسان ..

من قاد الإنسان إلىٰ هذه المأساة فضاعف من تخبطه ، وزاد من ضياعه في العالم ، وجعل معضلته مركبة بعد أن كانت سهلة بسيطة ؟

كثيرة هي الأسباب ، ولكن يقف في المقدمة منها ذلك الخط الطويل من الكهنة والأرباب والوضّاعين والفلاسفة والأدعياء ..

كل يطرح مذهباً يخيل فيه للناس أنه هو الصواب المطلق وما دونه الباطل ، كل يعلن عن فلسفته يوهم الناس أنها الحق المطلق وما وراءها الضلال ، كل يصوغ نظرية في الفكر أو الدين أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو النفس أو التربية ... الخ... ويخدع الناس بأنها العلم الكامل وأن ما دونها الجهل والخرافة والأوهام .

وهم يفعلون هذا من أجل تحقيق مصلحة ذاتية ، أياً كانت طبيعة هذه المصلحة وتكوينها ، فهي حيناً تتوخى كسباً مادياً ، وهي حيناً آخر تستهدف استعباد الناس ، وحيناً ثالثاً تسعىٰ لنيل اعجابهم ودهشتهم ، وخضوعهم بالتالي ..

إنهم طواغيت المال والسياسة والفكر والعقيدة والفلسفة ، هؤلاء الذين يضلّلون الناس ويدفعونهم لكي يتخذوا الموقف الخاطىء الذي لن يكون في صالحهم علىٰ أية حال . .

ولكن من الذي يلزم هؤلاء بالإنسياق وراء الضلال ، والإستجابة للخداع ، والإنحناء للادّعاء ، والتعبُّد للطغيان ؟

إنه الجهل ، أو الضعف ، أو الخوف ، أو الأغراء ، أو غيرها من الأسباب ، فليست المسألة ـ إذن ـ تكمن في اتخاذ موقف لكي يتميز الإنسان عن الحشرات والأنعام ، ولكن في اتخاذ الموقف الصائب ، الموقف الذي ينطبق علىٰ إقامة الإنسان ويستجيب لحاجاته ، ويرفعه ، ويزكّيه ، ويسدوده علىٰ العالمين .

ولن يكون احد من الناس بقادر علىٰ تقديم موقف كهذا مهما كان حجم ادعائه ، ومهما غطىٰ عجزه وقصوره بنظريات تعجب ، وفلسفات تبهر ، وأساليب ملتوية تضلل وتخدع ، ومهما استعان بوسائل القوة والسلطان لفرض موقفه علىٰ عقول الآخرين ، وارغامهم علىٰ قبوله .

فهذا الإنسان ، مهما امتلك من علم وقدرة وسلطان لا يعدو أن يكون واحد من آلاف النّاس وملايينهم ، فيه ما فيهـم من عجز ، ويحكمه ما يحكمهم من جهل وغرور ، ويلفّه ويلفهم من ظنون واهواء .

ولن يكون إلا الدين القادم من عند الله سبحانه ، الموقف الذي يليق بمكانة الإنسان في العالم ، والذي ينقذه من التيه والحزن والخوف والضياع . .

وهي أمور يعيشها الإنسان المعاصر ، يعرفها جيداً ، ويلعق مرارتها صباح مساء . .

وهكذا ومن حيث التفتنا وجدنا أنفسنا في الحالة ذاتها التي وجد آدم نفسه فيها، لابد من تلقي الكلمات . . لابد من اتباع الهدىٰ القادم من السماء ، واتخاذ الموقف الذي يليق بالإنسان .

وليس وراء ذلك سوىٰ الأماني والأوهام والظنون . . وما هي بالمواقف التي تتخذ ولكنها المصالح والمخاوف والأهواء!

الوسطيـة والوفاق

ما أجمل موقف الإسلام من كل قضية ، وما أشد منطقيته مع كل مسألة ، وما أروع رؤيته المهندسة المتفردة لكل شيء . .

إنه الموقع الوسطي العادل الذي اختاره الله سبحانه لهذه الأمة لحظة انتمائها لدينه القويم ، الموقع الذي يتعامل مع معطيات الكون والحياة والإنسان وفق صيغ متوازنة ، ورؤى شاملة ، وتحليلات موضوعية لا تنحرف ذات اليمين أو ذات الشمال .

لقد جاء الإسلام لكي يحقق الوفاق بين الموجودات ، والتناغم بين الإنسان والعالم والكون ، ويتوجه بها جميعاً صوب الخلاق ، فما ثمة بد من أن تتحقق في كل جزئية من جزئيات الإسلام هذه النظرة المنطقية الطبيعية أزاء المسائل والمشاكل والقضايا والمعضلات .

لقد أريد للإسلام أن يكون الاطار الأمثل لحركة الكون والحياة والعالم والإنسان ، ومن ثم أن هذا الانسجام المعجز والتناغم العميق .

وللوهلة الأولى تتبدى بعض مواقف الإسلام من هذه القضية أو تلك غامضة ، أو ناقصة ، أو متطرفة ، أو غير مقنعة على العموم ، ولكن بالتمعن في الموقف ، باختباره على مستوى التحقق الذاتي أو التاريخي ، يتبين صدقه ومنطقيته وإقناعه .

وكثيرة هي المواقف الإسلامية التي اعلنت ازاءها صيحات الرفض والتشكيك والاحتجاج ممن يجهلون البعد الحقيقي للموقف ، أو ممن يتعمدون أن يتجاهلوه ، ولكن الحركة التاريخية ، حركة الواقع البشري نفسه ، سرعان ما تكشف عن زيف هذا الادعاء وصدق (المحتجّين) على الأخذ بمقولات هذا الموقف والأذعان لهندسته البارعة .

ذلك أنه موقف يتميز بالوسطية في رؤيته للظواهر وتحليله لها ، وطرحه الحلول والبرامج لمشاكلها ومعضلاتها .

ولا يذهب الظن إلى أن الموقف الوسطي يعني الحل الوسط ، ابداً ، فالموقف رفض للجنوح ذات اليمين أو ذات الشمال ، والحل الوسط قبول لتفاريق من اليمين واليسار . . اجزاء من هذا الجانب أو ذاك . . الموقف اصالة وذاتية ، والحل الوسط ترقيع وفقدان للهوية . . الموقف جوهر متفرد ، والحد الوسط مركّب من عديد من المواقف .

فهو وسطي إذن بشموليته ، وموضوعيته ، وإدراكه الفذ لمطالب الحياة والإنسان ، وقدرته الفريدة على وضع الحلول المناسبة التي تنطبق على الوضع أو المعضلة انطباقاً رياضياً باهراً .

إن إيجابية هذه الوسطية تتبدى لحظة احالتها على المحاولات الوضعية(١) لمجابهة مطالب الحياة ، إنها حينذاك تميل وتجور وتتطرف وتبعد عن نقطة التوازن ، وتلح في البعد فتذهب ذات اليمين ثم تتوغل فيه صوب حدّه الأقصى ، أو تتجه ذات الشمال ثم تتوغل فيه الى حده الأقصى .

وفي كلتا الحالتين تفقد المحاولة قدرتها على مجابهة كافة اطراف المعضلة ووضع الحلّ الذي ينطبق على مساحاتها وخطوطها كافة ، وتنكمش بدلاً من ذلك لكي تغطي جانباً محدودا منها فحسب ، وهي ـ مع ذلك ـ لا تغطيه بالحلّ الذي يملك التركيز والإدراك ، ولكن ، في معظم الأحيان ، بالظنون والأهواء .

كثيرة جداً هي المعضلات والقضايا التي تتطلب حلولاً ، ممتدة على مساحات الزمان والمكان ، متجددة تجدد الحياة نفسها .

وأزاء كل واحدة من هذه القضايا أو المعضلات نلتقي بالوسطية الإسلامية ونلتقي ـ كذلك ـ بجنوح المذاهب الوضعية وفقدانها التوازن والشمولية .

قضية المرأة مثلاً ، أن المذاهب الوضعية لم تستطع أن تجد إلى الآن الصيغة المناسبة التي تضع هذا المخلوق الفريد موضعه الحق ، ومن ثم تميل بها ذلك الميل العظيم الذي حدثنا عنه كتاب الله ، وتتأرجح في أقصى حيّها بين الإباحية التي تهبط بها إلى درك الحيوانية ، وبين الكبت الذي يدمر طاقاتها المبدعة ويفقدها دورها المتيمز الأصيل .

---

(١) المقصود هنا المعنى اللغوي لا الاصطلاحي للكلمة .

أما في المنظور الإسلامي فإنها ، من خلال رؤ ية وسطية عادلة ، تأخذ مكانها الحق بما ينسجم تماماً مع تكوينها ومطالبها ؛ إنسانة ، وانثى ، وابنة ، واختاً ، وزوجة وأماً ، وليس هنا بطبيعة الحال مجال الدخول في التفاصيل .

في قضية الفرد والمجتمع قالت المذاهب الوضعية ، ولا تزال ، كلمتها في معادلتها الصعبة ؛ إما الفرد أو المجتمع . . أما الحرية أو العدل . . إما هذا أو ذاك . . أما الإسلام فإنه قدر بوسطيته علىٰ أن يلمّ حـدي المعادلة وأن يعطينا الجواب المقنع الصحح : هذا وذاك ، الفرد والمجتمع ، الحرية والعدل .

في مسألة الروح والجسد نلتقي بالمذاهب الوضعية والأديان المحرفة وهي تضرب في النية ، محلّقة حيناً في سماوات الروح والمثال ، وهابطة حيناً آخر لكي تلتصق بالجسد والتراب . . والحصاد في كل الأحوال هو دمار الإنسان وعدم قدرته علىٰ التحقق بالوئام والانسجام ، أما الإسلام فإنه ينفرد من بين سائر المذاهب والأديان ، ويقدر في الوقت نفسه ومن خلال رؤ يته الوسطية المتكاملة أن يمنح الإنسان انسجامه ووئامه وأن يتجاوز به مأساة التزيق والأزدواج .

وما يقال عن هذا يمكن أن يقال عن قضايا اخرىٰ كثيرة ؛ الطبيعة والغيب ، الثبات والتطور ، الدين والعلم ، الأرض والسماء ، القدر والحرية ، الدنيا والآخرة ، وغيرها خط طويل من الثنائيات أو التقابلات التي اقامت المذاهب الوضعية بينها سداً فعزلت بعضها عن بعض وقطعت عليها طريق التواصل والإلتحام، وجاء الإسلام لكي يقودها بوسطيته الشمولية إلىٰ التوحد واللقاء .

وتكون النتيجة ليس سعادة الإنسان وانتماءه الذاتي فحسب ولكن منحه قدرة أكبر علىٰ الفاعلية والإنجاز .

إن الموقع الوسطي الذي اختاره الإسلام ليس مكاناً جغرافياً محدداً ، ولكنه استشراف وشمول وستراتيجية عمل ، وقدرة فذة علىٰ تحقيق الوفاق والانسجام بين كافة الثنائيات ، الأمر الذي يمنح المسلمين مركز التفوق والصدارة ويمكنهم من قيادة الأمم والشعوب ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداً على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة. آية ١٣٧ .

ما يُقـرأ . . ومـا يرمى به عرض الحـائط

مرة اخرىٰ اعود للكتابة في موضوع سبق وأن تحدثت فيه كثيراً، ولكن الضرورات تبيح المحظورات كما يقول المثل ، وإذا ضاق الأمر اتسع كما يؤكد المبدأ الفقهي .

فبين الحين والحين يلتقي المرء بنماذج من المثقفين أو انصافهم ، بعضهم يعني ما يقول ، وأكثرهم لا يعني ما يقول. ويتدرج هؤلاء في سلّم المعرفة ما بين طالب اعدادية واستاذ جامعي ، ولكن إذا كان الهوىٰ هو الذي يصدر الأحكام فليس ثمة فارق اساساً بين الطالب والأستاذ !

ومن بين هؤلاء جمع من الناس ينعى علىٰ الكتابات الإسلامية المعاصرة توجّهها صوب عموم المثقفين وعدم التزامها الصارم بمبادىء التخصص العلمي ذي التنصيص والتهميش .

وهم يقيسون نجاح مؤلف من المؤلفات بمدىٰ التصاقه بدائرة تخصصه ومقدار ما تتضمنه صفحاته السفلىٰ ، أو الخلفية ، من هوامش وإشارات وتحقيقات وإيضاحات قاموسية وذيول . . بل إن

بعضهم يذهب إلىٰ أبعد من هذا فيصرُّ علىٰ أن الكتابات المجدية هي تلك التي تقبس من مصادرنا القديمة وحدها في هذا المجال أو ذاك ، وتقف عند حدود معطيات الأجداد ولا تتجاوزها البتة إلا في حال ايضاح نصّ ، أو تفسير عبارة ، أو شرح كلمة .

وسمعت اكثر من واحد يقول أن اعمالاً كهذه جديرة بالعناء حقاً ، وأما ما عداها فلا يكاد يسن حاجة أو يروي غلّه . .

لكن كلام هؤلاء الذي ينبعث عن الحرص حيناً ، وعن الهوى في معظم الأحيان ، شيء ، والتجربة الواقعية المعاشة وضروراتها الثقافية شيء آخر . .

المفكر الجاد هو الذي يتابع هذه الضرورات ، ويرتب أولوياتها في زمن منصرم قد لا يتسع لقول كل شيء هام !

ومن بين هذه الضرورات وتلك الأولويات ان نتجه بالكتابة إلىٰ الطبقة الأوسع من المثقفين والقراء ، وأن تملك هذه الكتابة القدرة علىٰ التأثير العقلي والوجداني ، والحركي في نهاية الأمر ، فضلاً عن تحقيق قدر من التواصل مع « العصر » الذي نعيشه جميعاً ، وضرورة ان تكون مناهجنا ومفرداتنا قديرة على الإفادة من معطياته من جهة ، وتوصيل فكرنا الإيماني إلى سمعه وعقله وضميره . . من جهة اخرىٰ . .

من لهذه القاعدة الواسعة من المثقفين لو حدث وأن استجبنا لتلك الرغبات المحدودة ، واعتقلنا أنفسنا كل في حدود تخصّصه ، فكتب هذا في حرفيْ «لا وكلا » وكتب ذاك في الفرق « بين الضاد والظاء » وحبس ثالث نفسه في «حكم شهادة الزور » و«إسقاط الدعوىٰ من

جانب واحد» وانفق رابع عمره في « أسباب تدهور المالية في عصر المقتدر »، وقدم كل واحد من هؤلاء مئات النصوص تدهور المالية في عصر المقتــدر وقـدم كل واحد من هؤلاء مئات النصوص وألوف الهوامش والتعليقات والشروح ؟

ولحسن الحظ فإن هذا الذي يريده هؤلاء واقع بالفعل ، فإن الجامعات اخذت تخرّج ، في العقود الثلاثة الأخيرة بشكل خاص ، عشرات بل مئات من هؤلاء المتخصصين الذين تلزمهم الضرورات الأكاديمية في تقديم اعمال وعينات تخصصية من هذا القبيل .

ولا ضير في ذلك مطلقاً ، بل هو ضرورة من ضرورات العمل الأكاديمي وهو في الحق يملأ فراغاً كبيراً في المكتبة المعاصرة في سائر اختصاصاتها وفروعها . ولكن الضير في أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه ، وفي أن يكون مجال تخصصنا سجناً لنا لا يسمح بالذهاب بعيداً ، والتجوال في حقول المعرفة المنختلفة ، ومخاطبة المثقفين بالصيغ التي تؤثر فيهم ، وبالأسلوب والمنهج اللذين يجعلانهم يقبلون على القراءة والتلقي ، لا يهربون منها ويلوذون بالفرار !

وإنني لأقولها على سبيل اليقين المستمد من الواقع المشهود ؛ كم من المثقفين الإسلاميين ، وغير الإسلاميين ، قدروا على أن يواصلوا القراءة في معظم الأطروحات التي تطرحها الجامعات شهراً بشهر وأسبوعاً بأسبوع ؟ كم منهم اقفل عليها الغلاف لا لصعوبة فيها ، أو عمق في فكر صاحبها ، وإنما لأنها تتحرك في نطاق ضيق محدود لا يهم إلا الباحثين والمتخصصين . وحتى هؤلاء فإنهم لم يكلفوا أنفسهم يوماً عناء قراءة أعمال كهذه من الغلاف إلى الغلاف . كل

الذي يفعلون أنهم يمرون على ما يهمهم مروراً سريعاً ، يقبسون منه هذا النص أو ذاك ، وهذا التعليق وذاك ،ثم يطبقون على الأطروحة الغلاف بعد أن يكونوا قد اخذوا حاجتهم المحدَّدة منها .

وعلىٰ غير ما يتوهمه هؤلاء فإن التنصيص والتهميش المزدحمين قد يخفيان وراءهما عجزاً ، فإن كثيراً من انصاف الباحثين ، وأرباعهم ، لا يقدرون علىٰ كتابة صفحة واحدة من عند انفسهم ، صفحة واحدة قد تتضمن تحليلاً حيناً ، وإبداعاً حيناً آخر ، وإضافة واغناء حينا ثالثاً ، فيتكئون علىٰ النصوص التي يجمعونها من حشود المصادر يسندون ظهورهم عليها ، كيلا يضطرهم الترنح في الفراغ إلىٰ السقوط !

إنهم لا يفعلون بأكثر من تنضيد هذه النصوص ، وفق هذه الصيغة أو تلك ، والربط بينها بحروف العطف والإضافة ، ثم تهميشها بأكبر قدر ممكن من المصادر والمراجع .

وبما أن الاكاديميات ، في معظمها ، اصبحت تمنح درجاتها «الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه» بمجرد تقديم « اطروحة » ، مطلق اطروحة ، كما يقول المناطقة ، بغض النظر عن مبلغ اصالتها ، ومدىٰ قدرة صاحبها علىٰ الإضافة والإبداع ، فإن اعمالاً كهذه سوف تشق طريقها محمولة علىٰ اظهر اصحابها إلىٰ المراكز الجامعية المتقدمة لكي تحسب هناك كتباً من الكتب وابحاثاً من الأبحاث .

بعدها ، يصعب علىٰ المرء المتابع أن يعثر علىٰ بحث قيم واحد لمعظم هؤلاء الخريجين . . كانوا يريدون الشهادة العليا وهاهم قد حصلوا عليها ، فعلام يكتبون ويبحثون ؟ وهم حتىٰ لو أرادوا ،

اتراهم يملكون القدرة علىٰ تقديم شيء ذي غناء ؟ ولمن ؟ إذا كانت قاعدة المثقفين العريضة تملك احساساً ذكياً فيما يقرأ ، وفيما يرمىٰ به عرض الحائط بعد الاطلاع علىٰ سطوره الأولىٰ ؟

إن الأعمال التي تعتمد فكر الباحث وقدراته وفق اقل قدر من الأتكاء علىٰ معطيات الغير ، هي بلا ريب اكثر صعوبة وقيمة . . والكاتب الذي يملك هذه القدرة ، لا يعجزه ، كما يتوهم المتوهمون ، أن يملأ ابحاثه بالتنصيصات والتهميشات ، ولكنه يعتبرها مجرد خطوة أولية لا يقف عندها الا كتاب التقارير وطلبة الدراسات العليا ، أما هو فيجد نفسه مضطراً لتجاوز هذه المرحلة صوب الإضافة والإبداع .

وليس عليه بعد هذا أن يتكىء كتّاب التقارير علىٰ حشود النصوص، أو أن يختبئوا وراء منهج البحث العلمي وهم أبعد ما يكونون عن مطالبه إذا اعتبرنا ان من ضرورات العلم الإضافة والإبداع وقوة الخيال .

لا عليه . . لأن مقياسه الأول والأخير هو تلك القاعدة الكبيرة، العزيزة من المثقفين الأذكياء ، التي تعرف بحسّها وخبرتها ، ما الذي يستحق ان يقرأ ، وما الذي لا يستحق !!

الثابـت والمتحوّل في الإسلام

إن احتواء بنية الفكر الإسلامي علىٰ عنصري الثبات والتطور ليذكّر المرء بالاطار أو العجلة التي تحرك العربات والسيارات والقطارات وأدوات الحرب .. وغيرها ..

وهي العجلة التي أشار إليها الفيلسوف والمؤرخ البريطاني المعروف « أرنولد توينبي» وهو يتحدث عن الحركة التاريخية ، وعن التحديات والاستجابات ..

إن العجلة ترتبط بمحور ثابت ولكنها ، من خلال هذا المحور ، تلف وتدور وتمضي بالمركبات التي تستقر عليها إلىٰ كل مكان ..

ولن يكون بمقدور عجلة ما أن تؤدي وظيفتها دون هذا الدوران المنتظم حول المحور الثابت ..

والذين تأخذهم نوبات الحماس والإندفاع العاطفي ، باسم العقلانية ، والموضوعية ، وقوانين التاريخ ، فيدعون إلىٰ التطور المطلق دونما أي ارتكاز علىٰ اصول ثابتة ، كأنهم يطلبون من العجلة

أن تؤدي دورها دون أن ترتكز على محورها الثابت . . إنه سيغدو مستحيلاً عليها أن تؤدي وظيفتها وأن تنتقل بالعربات والمركبات الىٰ اهدافها القريبة والبعيدة . . لأنها سوف تدور دورتين أو ثلاثاً وما تلبث أن تتفكك وتتبعثر ، وتجد المركبة نفسها قد انزلقت إلىٰ الأرض لكي تستقر هناك ، ثابتة ساكنة ، غير قادرة علىٰ التحول والحركة .

وطبعاً ، فإن الذين يدعون بالمقابل الى ثبات الحياة، وشدّها إلىٰ محاور ساكنة لا تلف ولا تدور ، فإنهم كمن يحكم على العجلة أن تظل حيث هي في مكانها لا تدور أبداً ، وهي بحرانها ذاك ستحكم على المركبة بالبقاء الأبدي في مكانها . .

وفي معظم الأحوال كانت المعطيات الفكرية البشرية تميل إلىٰ هذا الجانب أو ذاك فتصيب الحركة التاريخية الموزونة بالعقم أو الانحراف أو التفلّت ، وفي كل الأحوال ما كان بمقدور المركبات البشرية أن تصل إلىٰ اهدافها . .

أي تطور هذا الذي لا يرتكز علىٰ مقومات ثابتة تنبثق من تكوين الإنسان وسنن الحياة ونواميس الكون وقوانين التاريخ نفسه ؟

وأي سكون هذا برفض الأعتراف بعناصر الحركة والنمو التي تعبر عن نفسها بوضوح مكشوف حيناً ، وبخفاء حيناً آخر ، في تكويننا الأدبي نفسه وفي ساحة الحياة ، وعلىٰ مدىٰ السماوات القريبة والبعيدة . . وفي نسيج الفعل التاريخي المتحقق في الزمن والمكان ؟

إن واحداً من جوانب الأعجاز في بنية الفكر الإسلامي يتبدىٰ واضحاً ها هنا بالذات ؛ تحقيق الوفاق المرسوم بعناية بين عناصر الثبات والتحول واحتواء كافة معطياتها ، بصيغة متفردة لا تتعسف لم

الجزئيات لمّا ميكانيكياً آلياً صرفاً ، ولا تكدسها تكديساً شيئاً تراكمياً يفتقد التوازن والأرتباط . . ولكنها تعشق بين النسب والمكونات ، تجعلها تتداخل وتلتحم وتتفاعل في إطار تجربة حيوية مترابطة تكاد تختفي في نسيجها خيوط الثابت والمتحول ، لكي ما تلبث أن تبرز للعيان قطعة محيكة من نسيج متين مشغول بمهارة فائقة .

إن المسألة لا تقتصر علىٰ التوجه الشمولي للفكر الإسلامي ، أو علىٰ طابعه العام وخطوطه العريضة ، ولكنها تمتد إلىٰ كل جوانبه وجزئياته وتنتشر في مساحاته كافة . . فإنه ما من جانب من جوانب هذا الفكر ؛ اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو تشريعية أو اخلاقية أو ثقافية . . الخ إلّا وهي تتضمن التناسب الباهر بين الثابت والمتحول بما ينسجم ووضع الإنسان في العالم ومطالب حركته التاريخية .

وقد تزيد نسبة الثابت هنا والمتحول هناك لأن طبيعة الحالة تقتضي زيادة هنا ونقصاناً هناك ، لكنها في كل الأحوال لن تعدم ذلك التقابل الدائم بين عناصر الثبات والتطور .

إن المرء ليستطيع أن يتخيل المسألة أو يقربها من خلال تصوّر التخلق الجنيني في الأرحام . . إن المخلوق الجديد يحمل طابعه أو شخصيته المتميزة التي تتبلور بمرور الوقت ، من خلال نسب المكونات الوراثية القادمة من حويمن الذكر وبويضة الأنثىٰ .

إن هذا التخلّق سيحتاج الىٰ ملايين الخلايات التي تبنيه وتمكنه من الحياة ، وكل مجموعة منْ الخلايا تتولىٰ بناء جانب من نسيجه واعضائه ولكن كل واحدة منها تحمل المكونات نفسها ، الخصائص التي تمنحه

شخصيته المتميزة التي تفرّقه عن الآخرين .

وهكذا فإن كل الجزئيات التي لا حصر لها والتي تسهم في تكوين بنية الفكر الإسلامي المتميز ، تحمل في تركيبها ، كلاً على حدة ، خصائص الثبات والتحول لكي ما تلبث أن تصبّ في البناء العام .

ومن خلال هذا التوافق بين ضرورات الحياة البشرية وقوانين الحركة التاريخية وبين معطيات الإسلام ، قدر هذا الدين ، وسيظل : على ان يكون الاستجابة الأكثر فاعلية وانطباعاً على مقولات الإنسان والتاريخ !

الإنسان أوّلاً

في عبارة وردت في مذكرات « لويس فيشر » الكاتب الامريكي اليساري الذي كان يعد نصيراً للاتحاد السوفيتي عبر عشرينات هذا القرن وثلاثيناته ، نلتقي بالبعد الحقيقي للمشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية في جانبها الشيوعي.

وابادر فأقول بأنها فعلاً حضارة واحدة ، ذات اسس واحدة ، ونسيج ذو خيوط واحدة ، وربما اهداف مادية واحدة ، وليس ثمة من فارق بين الجناحين الرأسمالي والشيوعي سوىٰ في سياستي المال والعلاقات الدولية ، أي استراتيجية العمل علىٰ نطاق العالم .

والآن فإننا نجد حتماً هذه الفروق تتضاءل يوماً بعد يوم ، بل إن نقاط التماس والتشابه تزداد عدداً واتساعاً علىٰ خارطة العلاقات الداينامية بين المعسكرين .

ويبقىٰ نسخ الحضارة الغربية في الجانبين واحداً وإيقاعها واحداً . .

يقول « فيشر » وهو يعلّق علىٰ مشاهداته الميدانية في الأرض

السوفيتية « لقد بدأ فكري يزعجني ، وبدأت اتساءل ؛ ألم أكن امجد الفولاذ والكيلووات وانسى الإنسان؟ إن كل الأحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء الكهربائي والانفاق الأرضيه التي في الدنيا لا تساوي شيئاً إذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسداً شريراً »(١).

وهذا الاستنتاج الذي يكثّف خبرة أكثر من عقد من الزمن ويتمخض عن مشاهدات عالم شيوعي بأكمله ، ليس جديداً ، ونحن نعرف جميعاً ذلك المثل المعروف المنحدر الينا ـ ربما ـ من عصور اليونان والرومان « ماذا ينفع الإنسان إذا كسب العالم كله وخسر نفسه »؟

ويتساءل المرء ؛ هل ثمة « مستحيل » في تحقيق التوازن بين طرفي المعادلة ؛ العالم والإنسان ؟

ويتساءل للمرة الألف ؛ لماذا يصرّ الغربيون ، في النظرية والتطبيق، على مبدأ « أما هذا أو ذاك » ؟ إما الإنسان أو العالم ؟ لماذا. لم يتجاوزوه إلى مبدأ آخر أكثر منطقية وعدلاً ؛ هذا وذاك ، العالم والإنسان ؟

ها هنا في التجربة التي لخبرها « فيشر » واستخلص من خبراتها استنتاجه ذاك ،نلتقي بانتاج متزايد ومتطوّر للأحذية والفولاذ والجرارات والكتب ، وبتوسع مذهل في بناء المدارس والعمارات والمصانع والأنفاق الأرضية ، وفي اعتماد الكهرباء . . ولكن اين الإنسان ؟

(١) الصنم الذي هوى ، لآرثر كوستلر ورفاقه ص ٢٥٨، ترجمة فؤاد حمودة ، الطبعة الثانية ، بيروت ـ ١٩٧٠.

انه يكاد يضيع علىٰ خارطة التجربة المكتظة بالمطارق والمداخن والمصطكّة بأزيز المكائن والآلات .

أداة من هذه الأدوات المنتشرة في المدن والأرياف تبذل جهدها المتواصل من أجل انتاج مساحة أوسع من النسيج ، وعدد أكبر من قطع الغبار لتصويرها للخارج.

إنهم يقولون في واحد من شعاراتهم ذوات البريق « الإنسان اثمن رأسمال » وعلىٰ ما في هذه العبارة من خطيئة بحق الإنسان لأنه لا **يمكن أن يكـون « رأسمال » بأيـة صيغة من الصيغ ، فإنه الذي يحدث يناقـض في الأساس هذا الشعار .**

فمنذ اللحظة التي يقضي فيها علىٰ حرية الإنسان . . منذ اللحظة التي يصير فيها رغيف الخبز بديلاً عن الحرية . . منذ اللحظة التي يرغم فيها المواطن علىٰ التخلي عن اشواقه ومطامحه ، والتنازل عن ملامحه ونسيجه الخاص ، والتحول الىٰ مجرد رقم من الأرقام ، أو كائن مجرد ينتج ويأكل لكي يواصل مهماته الإنتاجية . . اللحظة التي **يسهل أن يحل فيها «س» محل «ج» و«ق» محل «ر» دون أي تغيير** في إيقاع ماكنة الحياة اليومية . . منذ هذه اللحظة يكون الإنسان قد خسر نفسه حقاً لـو انتـج في اليوم الواحد الف زوج من الأحذية ، أو نسج مائة الف متر من القماش !!

والذي يخسر نفسه لا يمكن أن يساوي شيئاً ، فإن الحضارات يصنعها أولئك الذين « يجدون » أنفسهم ويعرفون كيف يضعونها فوق مستوى الماديات والأشياء ، أولئك الذين يقدرون في اللحظة المناسبة علىٰ اتخاذ القرار الحرّ الذي يتناسب ودورهم في العالم ككائنات متفردة

تعلو علىٰ الضرورات وتتجاوز منطق الانقياد الأعمىٰ ، والقطيعية ، والتسطح . .

ويعود السؤال الأبدي لكي يطرح نفسه مرة أخرى ؛ « ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه »؟

ويكون الجواب ما سبق وأن قاله « فيشر » وهو يتجول في انحاء العالم الجديد الذي قيل انه يبنى من أجل الإنسان ؛ « إن كل الأحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء الكهربائي والإنفاق الأرضية التي في الدنيا ، لا تساوي شيئاً إذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسداً شريرا ».

البذرة والبستان الأخضر

كما أن الصراع وتأجيجه كلما اوشكت ناره أن تخبو ، يعد ضرورة من ضرورات العمل الدرامي من أجل تحريكه ومنحه الحيوية والإثارة ، فكذلك هو ضرورة من ضرورات الحياة البشرية نفسها ، بما أن الدراما هي محاولة لمحاكاة هذه الحياة أو عرض عينات منها بصيغة العمل المسرحي .

ولقد كان وضع ابليس منذ لحظة الخلق الأولىٰ قبالة آدم في موقع التحدي والمعارضة ، يحمل هذا المعنىٰ ؛ بذر الصراع في صميم التجربة التي ستخوضها البشرية علىٰ ساحة العالم ، وتحريك هذه التجربة بسلسلة متصلة الحلقات من الأفعال وردود الأفعال بين الإنسان والشيطان .

ان قوىٰ الشر والضلال التي هي امتداد للوجود الشيطاني قبالة الإنسان تحمل مغزاها الواضح علىٰ هذا الضوء ؛ استفزاز الإنسان باستمرار ورفعه إلىٰ مواقع الفاعلية ، والتشكّل ، والمجابهة ، والتغيير .

والقرآن الكريم يشير إلىٰ هذا التقابل الدرامي ، **القائم** علىٰ الصراع ، في اتجاهه العمقي والأفقي .

فهنالك صراع بين الإنسان ونفسه لمجابهة قوة الشرّ التي تستفزه من الداخل، وهنالك صراع بين الإنسان وبيئته لمجابهة قوىٰ الضلال التي تتحداه من الخارج .

وفي الحالتين تتحرك الحياة البشرية وتتجاوز مواقع السكون إلى التشكل المستمر والصيرورة المبدعة .

في الحالة الأولىٰ يقود الصراع إلىٰ التغيير الذاتي الذي يبعث الإنسان القدير علىٰ الفعل والإنجاز ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(١).

وفي الحالة الثانية يقود الصراع إلىٰ تغيير العالم من أجل خلق الأرضية التي تليق بالإنسان ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل علىٰ العالمين ﴾(٢).

ولنتصور حياة بشرية تخلو من الصراع. . حياة لا أبالسة فيها ولا شياطين حياة ينعدم فيها الشرّ والضلال . . حياة لا إثارة فيها ولا حركة ولا حوار بين الأفعال وردودها . . اتراها حينذاك تعدو أن تكون بحيرة راكدة ؟ وهل تكون حينذاك جديرة بأن تعاش حقاً ؟

وكيف يتحقق الفعل الحضاري والنمو العمراني إن لم يجد الإنسان

---

(١) سورة الرعد آية ١١.
(٢) سورة البقرة آية ٢٥١.

نفسه يكافح القوىٰ التي تستفزه وتتحداه وتقف في طريقه ؟

إن (تشكّل) الحضارات اساساً جاء ، فيما يصل إليه « توينبي » عبر استقرائه لتاريخ البشرية ، وليد هذا التقابل الذي يصطرع فيه الإنسان مع خصومه علىٰ كافة المستويات . وأنه ليقف طويلاً في بدء تحليله الواسع عند قضية الخلق ودور الشيطان في خارطة العالم الذي سيهبط اليه الإنسان ، يقف طويلاً لأنه يدرك جيداً أن خلق الشيطان منذ تلك اللحظات الأولىٰ يحمل مغزاه الذي سينسحب فيما بعد علىٰ مدىٰ التاريخ البشري .

ولنا أن نتصور سخف الدعوة الساذجة التي تأسف علىٰ ان الإنسان لم يخلق في عالم لا أبالسة فيه ولا شر ولا ضلال .. عالم يتمحّض بالخير والفضيلة ، ويعفىٰ فيه الإنسان من الصراع والعناء .

أن «توبيني» نفسه يعتبر هذه الحالة التي وضع يده علىٰ بعض نماطها في هذه الجهة أو تلك من العالم ، أمراً استثنائياً نقيضاً للوضع الطبيعي المناسب لموقع الإنسان ودوره، لأنه وجد تلك الحالات تقود إلىٰ الإستسلام والاتكالية والسكون والبدائية ، ولا تبشر بأية بادرة للفعل والتحقّق الحضاريين .

فلا بـد من التحديات ، لابد من قوىٰ الشد والإعاقة ، لابد من الأبالسة والشياطين .. من الشر والضلال .. من التعاسة والشقاء ، لكي يستفز الإنسان ويتحرك للاستجابة .. فبهذه الأستجابة سيتفوّق وسيصنع حضارته المتألقة ..

لقد بعث الإنسان لكي يصنع مصيره بفعله الخاص لا بمعجزة تأتيه من السماء بمدىٰ قدرته علىٰ الامساك جيداً بتعاليم السماء ، والسير على

هدىٰ الأديان لصياغة عالم يليق به وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلىٰ حين . فتلقىٰ آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . ﴾ قلنا اهبطوا منها جميعاً فأمّا يأتينكم مني هدىٰ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[١] .

ولن يتأتىٰ ذلك بطبيعة الحال والإنسان قاعد مستريح لا يصارع ولا يقاوم ولا يبذل جهداً من أجل حماية انتمائه الديني وتنفيذ مقولاته على ساحة الأرض. ولن يكون هناك صراع أو مقاومة، أو حركة أو تقدم ، ما لم يكن نسيج العالم مزروعاً بالأبالسة ، والشياطين وقوىٰ الشرّ والتعاسة والضلال . . .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣٦ـ ٣٩.

الإصطراع مع المرأة

مرة أجرى مع « المرأة ».

والأمر لا يقتضي هذا الالحاح لو أن الأمور سارت وفق مجراها الطبيعي وأخذت هذه الكائنة الفريدة ، المتميزة مكانها المرسوم في خلق الله وتصميمه المعجز للحياة والأشياء . . .

ولكنهم ارغموها ، بشكل أو آخر ، لكي تخرج عن مكانها فتضل وتضيع وتصبح لها مشكلة تزداد مع الأيام تعقيداً ، بينما هم يتصورون أنهم قد وجدوا لها حلاً !

إننا نتذكر هنا تلك العبارة الذكية التي استعملها الناقد الانكليزي « جون سترايتشي » في كتابه « الصرخة المختنقة » وهو يناقش رواية « باسترناك » الشهيرة « دكتور زيفاغو » ويضع يده على عناصر الأرتطام بين معطياتها وبين نسيج التجربة الماركسية .

والعبارة هي « الاصطراع مع التاريخ » . . وباختصار فإن الماركسية ، شأنها شأن العديد من المذاهب إلوضعية ، جعلت نفسها في حالة اصطراع مع التاريخ ، لا وفاق معه . . اصطراع مع التاريخ

بمعنى الوقوف ضد قيمه وبداهاته وأقانيمه ومؤسساته التي اجمعت عليها الأمم والشعوب والحضارات وغدت بمثابة احجار الزاوية لكل نشاط حضاري يمارسه الإنسان .

والتاريخ هنا يعني الخبرة البشرية المنبثقة عن تركيب الإنسان وفطرته ومطامحه ، وميوله واشواقه وقدراته ، والمتوافقة معها .

لقد بذلت الماركسية جهداً مضاعفاً من أجل تحقيق انتصارها على البداهات لا لشيء إلا لأن «ماركس» ورفيقه «انغلز» استنتجا نوعاً من الأرتباط الميكانيكي بين هذه الخبرات وبين التركيب الطبقي للمجتمعات البشرية .

وفي هذه المعركة انتصر المذهب بصيغ القسر مرة، وانهزم أمام الخبرات الأكثر حركية وعمقاً ودواماً ، مرات . . ولكن الإنسان كان في كل الأحوال هو المنهزم على حساب المذهب . .

هذا ما أرادت الرواية أن تقوله كما يتصور« سترايتشي » من خلال تعبيره ذاك « الاصطراع مع التاريخ ».

ويبدو أن المسألة تنسحب على الموقف الغربي عموماً من المرأة . . هذا الموقف الذي سعى المقلدون الشرقيون إلى جرّه إلى الساحة الإسلامية وارغام المرأة على أن تمثل الدور نفسه .

إنهم باصطراعهم مع وظيفة المرأة الطبيعية المصممة على حجمها ، والمنسجة مع فطرتها وتركيبها وقدراتها ، قد اختاروا الإرتطام بواحدة من الحقائق الأساسية للتاريخ البشري ، وهم عبر معاركهم التي لا مبرر لها كسبوا مرة وخسروا مرات ، ولكن المرأة بالذات خرجت في

معظم الأحيان مهزومة تلعق المرارات ، رغم ما يبدو في الظاهر من بريق يعشي عيون من لا يقدرون على التبصّر بحقائق الأمور . دعونا نتساءل ؛ هل بمقدور قوة في العالم أن تحقق المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ؟

والجواب ؛ كلا .. بطبيعة الحال ، لأن هناك في تصميم الكائنين من الفروق النوعية على كافة المستويات الجسدية والفسلجية والنفسية والعاطفية ما يجعل الأمر مستحيلاً . ولكن لنتصور أن الأمر تحقق ، فهل يمثل كسباً حقيقياً للإنسان ؟ والجواب مرة اخرى ؛ كلا!

لأن المساواة المطلقة حتى على مستوى الموقع الأجتماعي للجنس الواحد امراً يناقض مفهوم العدالة من أساسه . فليست المسألة عملية حسابية أو رياضية لكي يتحقق التطابق بين المساحات أو التعادل بين الأرقام . إنها اعقد بكثير ، وأصعب بكثير .. وهي تتضمن شبكة من المنحنيات وخطوط التعاريض التي تجعل أية محاولة لتنفيذ مساواة رقمية غير ممكنة أساساً ، وإذا ما حدث وأن اعتمدت صيغ القسر والأرغام كانت النتيجة سلباً .. فكانت بمثابة دمار للإنسان وضياع لقيم العدل في ، ابعادها الإنسانية المعقدة ، الركبة ، الشاملة .. فكيف بالمساواة التامة ، أو المطلقة ، بين الرجل والمرأة ؟

لا شك أن معطيات الواقع المنظور أشد ثقلاً وإلزاماً من تحليلات المذهب النظري واستنتاجاته ، وقد أكد الواقع المرة تلو المرة أن ما يحاوله الغربي في هذا الصدد لا يعدو أن يكون خطيئة بحق الإنسان ، ثم ما يلبث أن يجد نفسه ملزماً بالرجوع إلى المنطلقات الأساسية التي تمرد عليها واصطرع معها .

إنها واحدة من أشد الأزمات التي يعانيها المذهب الوضعي ؛ الاصطراع مع التاريخ .. اعلان الحرب على فطرة الإنسان ومؤسساته الحضارية وخبراته الأساسية وتركيبه الفذ المتفرد ، ومحاولة صياغة « إنسان » آخر ذي فطرة مغايرة وخبرات جديدة وغريبة .. وهذا لن يتأتى ولن يكون .

وفي مقابل هذا تبدو واحدة من جوانب الاعجاز والتصميم الفذ للإسلام ؛ إنها الوفاق مع التاريخ والإنسان .. التطابق الباهر بين العقيدة وبين صيغ الخبرة التاريخية وفطرة الإنسان . فإذا ما حدث خسر الغربيون مرة واحدة وهم يحاولون إعادة صياغة المرأة ، فإننا هنا في عالم الإسلام سنخسر مرتين ، لأننا كمن يضحي بصيغة التوافق الصحيحة المرسومة بدقة واعجاز ، ويستبدل بها صيغة اصطراع خاطىء قد تضيع معه المرأة المسلمة والرجل بطبيعة الحال .

البحث عن الخلفية

يتساءل المرء احياناً ، لماذا يجد « الغربي » الإستعداد الدائم للتعاطف مع اليهود ، حتى بعد ممارساتهم اللاإنسانية في فلسطين ؟

أهو مجرد ر فعل إزاء موقف النازية من هؤلاء ، ذلك الموقف الذي بولغ فيه ، وفق سياقات مرسومة ، لكي تبنى عليه مكاسب مستقبلية لبني إسرائيل ليس قيام إسرائيل الا واحدة منها ؟

إن تفسير التعاطف بكونه مجرد رد فعل للإضطهاد النازي لا يكفي ، لأنه إذا منحنا القناعة بالنسبة لحشود الأوربيين العاديين الذين قد تتحكم عواطفهم في تصرّفاتهم ومواقفهم واحكامهم ، فإنه غير مقنع البتة بالنسبة لسلوك مفكري الغرب ، بل نخبة مفكريهم إذا أردنا الدقّة .

ولن يكون مقبولاً بحال أن ينساق هؤلاء وراء عواطفهم ، وألا يكون لديهم العقل المتبصّر الذي يكشف لهم عن الأسود والأبيض ، عبر مساحات التجربة كلها . .

لن يكون مقبولاً أن تستسلم العقول الغربية الكبيرة لسلطان رد

الفعل إلىٰ الحد الذي يجعلها تقع في التناقض عندما توافق، بل عندما تعلن ارتياحها وتأييدها ، للاضطهاد نفسه ، يمارسه اليهود هذه المرة ضد شعب عربيّ مسلم شاءت القوىٰ الاستعمارية الكبرىٰ أن يكون مشرداً في الأرض ، مستضعفاً ، وأن تكون العلاقة بينه وبين يهود العالم في صيغة أشد قسوة بكثير ، وأبعد عن نسيجها الإنساني بكثير مما كانت عليه الحال بين النازي واليهودي؟!

ترىٰ كم من المفكرين الغربيين قدروا علىٰ إدراك حدود الأسود والأبيض ، والتزموا موقفاً إنسانياً لمجابهة الأسود وملاحقته ، بغض النظر عن الجماعة ، أو الشعب ، أو الأمة ، التي تقف هنا أو هناك ؟

قلة قليلة لا تكاد تتجاوز اصابع اليدين ، والأكثرية الساحقة من المفكرين الغربيين أندفعوا في السياق الخاطىء فظلوا يتعاطفون مع اليهود حتى وهم (يحوّلون) عقدة الاضطهاد النازي الىٰ سوط ابدي يدمي ظهور الفلسطينيين في كل مكان ، ويسعىٰ إلى أبادتهم واستئصالهم .

إن المرء ليتساءل ـ كذلك ـ عن موقف هؤلاء المفكرين من صيغ اضطهاد شتىٰ نزلت بشعوب اخرىٰ .. نفذها الأقوياء بالضعفاء ، ومارستها القوىٰ الإستعمارية التي كانت تمسك يوماً بزمام العالم وتتحكم بمصائر شعوبه وامه ؟

قلة قليلة جداً رفعت صوتها علىٰ استحياء بمواجهة ممارسات الاضطهاد الجماعي هذه والتي لا يكاد ويحصيها عد علىٰ مدىٰ القرن ونصف القرن .

وظلت الأكثرية الساحقة ملتزمة الصمت إزاء ما يجري علىٰ ساحة

العالم من ممارسات لا يقرها شرع ولا قانون ولا إنسان!! بل إن بعض هؤلاء المفكرين وضع فكره وقلمه لكي يكونا أداة بيد القيادات الإستعمارية لتبرير جرائمها وإضفاء طابع عقلاني مقبول علىٰ ممارساتها بحق الإنسان !!

لماذا؟ مرة أخرىٰ ، اليس هو الاضطهاد الذي يفوق ما فعله النازيون بحسابات الكم والنوع؟

فأيـن هو رد الفعل ؟ أين هو التعاطف مع المغلوبين والمظلومين ؟

ويتذكر المرء كيف أنه ما من تظاهرة خرجت يوماً لكي تجوب شوارع هذه المدينة أو تلك من أوربا وأمريكا ، معلنة تأييدها للممارسات اليهودية ، صابة غضبها علىٰ ضحاياها ، إلا وكانت تضمّ عدداً لا يستهان به من رجال الفكر هناك بما فيهم أولئك الذين خدع معظم مثقفينا بهم وانساقوا وراء دعاواهم الإنسانية وحولوا اقلامهم وعقولهم إلىٰ أدوات صغيرة لخدمة هذه الدعاوي ، ولتدمير كل ما يقف في طريقها من قيم دينية أو اخلاقية .. ثم إذا بهم يفاجأون بأن الهتهم تلك ، قد خرجت من معابدها لكي تمنح بركاتها لبني اسرائيل وتصب ويلها وغضبها علىٰ كل كائن يقف في طريق اهدافهم المرسومة ، مهما كانت هذه الاهداف .

ثمة إضاءة خاطفة قد تمنح المتسائلين ما يقنعهم بحقيقة الأسباب .. إضاءه قد لا يتسع المجال لأكثر من طرحها بصيغة سؤال ، ولكنه سؤال يتضمن ـ أغلب الظن ـ البعد الحقيقي لهذه الظاهرة الملتوية التي يبدو أنها تستعصي علىٰ التحليل .

الا يتحتم أن نبحث عن الخلفية الصليبية التي يتحرك العقل

الغربي في مجالاتها لكي نكشف عن حقيقة الأسباب ؟

الخلفية الصليبية ؛ عادات ،وتوجهات ، وممارسات ، واسقاطات نفسية ، وتقاليد ثقافية ؟

الخلفية الصليبية كموقف نهائي يدفع الغربي حتىٰ ولو كان في الظاهر من خصوم النصرانية ، إلىٰ اتخاذ هذه الصيغة ؛ التعاطف مع المظلوم إذا كان يهودياً ، والتزام الصمت ، أو حتىٰ الأرتياح والتأييد ، إذا كان المظلوم عربياً مسلماً .. وإلا فما هي الأسباب ؟!

ويـل للمصلّيـن

لا تزال تلحّ علي ، رغم انقضاء سنين وسنين ، صورة ذلك الاستاذ الدكتور المتخصص في التاريخ الإسلامي يقف محاضراً أمام جمع من الحضور ، فيهزه الأنفعال والامتعاض ويتطاير الرذاذ من فمه وهو يصرخ ؛ أهي انسانية هذه التي ينادي بها القرآن ؟ ما ذنب الإعراب الكادحين كي يصبّ عليهم جام غضبه ، ويدمغهم بالكفر والمروق والنفاق ويدعو إلىٰ مقاطعتهم ثقافياً وعدم السماح بتعليمهم أصول الدين ومبادئه ؟ وراح يتلو ﴿ الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله ﴾[1].

وعبثاً حاول المستمعون إقناعه بخطأ استنتاجه ، عبثاً حاولوا تهدئته ووقف رشاش الرذاذ المتطاير من فمه . . وانتهت المحاضرة وهو يردد العبارات إياها .

ولو أنه صبر قليلاً ، والصبر علىٰ القراءة أقل ما يقتضيه التخصص من اخلاق ، واطلع علىٰ « أسباب نزول » الآية المذكورة وفهم ما

---

(١) سورة التوبة آية ٩٧.

تعنيه عبارة ﴿ اجدر الا يعلموا ﴾، ولو أنه واصل قراءة الأيات التالية ، لعرف أن غضبه الجارف ليس له ما يبرره على الاطلاق .

تلوتُ عليه ، دون أن يعيرني أذنا صاغية هذه الآيات ﴿ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا أنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم . وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم أن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم . ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾؟[1] .

قلت له معقباً ؛ ها هو القرآن الكريم يعرض علينا قطاعات الإعراب الثلاثة يسلط ضوءه على هذه العينة الاجتماعية في كافة أبعادها ومساحاتها . . .

ولكن يبدو أن الرجل حُمِّل ، وهو يدرس «هناك» هذه الرؤية الاحادية قصيرة النفس ، وكان عليه أن يوصلها بأمانة واتقان ، وإلاّ اضطر اساتذته « هناك » إلى سحب صفة « العلمية » التي منحوها إياه !

بعد مغادرة القناعة لحقت به ، حاولت أن امزج معه الجد بالهزل

(١) سورة التوبة الآيات ٩٨- ٩٩، ١٠٢- ١٠٤ .

عليّ اصل الى نتيجة بعد اذ عجز الجد وحده عنها . سألته : اصحيح ما يردده الناس من إن القرآن قد شن حملة قاسية على المصلّين وتوعدهم بالويل والثبور ؟

قال وهو يفتح حقيبته الفارهة على منضدة مجاورة لكي يضع فيها رزمة من كتب لا اعتقد أنه قد قرأ منها شيئا : لا يمكن ! لأن معنى هذا أن القرآن يناقض نفسه !

- كيف ؟
- ألم يقل في احدى آياته بأن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ؟

- بكل تأكيد . . ولكن الحملة هنا منصبّة على المصلين أنفسهم .
- اتعني المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ؟
- إنني اعني ما أقول . . المصلين . . وليسوا المنافقين .
- هات الدليل . . .
- ويلٌ للمصلّين !

وكأن الرجل ، وقد تلاشت الابتسامة في وجهه ، احسّ بقصدي فأجابني بعصبية : - ليس هذا وقت مزاح :
- ولكنك انت الذي بدأت المزاح !
- ارجوك ، لقد كنت القي محاضرة جادة .
- عفواً ، فقد اعتقدت أنك تمزح وأنت تتحدث بعصبية عن تنديد القرآن بالإعراب . .

ـ لم أقل الآ جداً . .

ـ فلماذا تتهمني ها هنا بالمزاح ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ الحملة التي شنّها القرآن علىٰ المصلّين . .

ـ لا تحاول ان تمزج الجد بالهزل ، ثم إنني مرهق وليس لُدي استعداد للمزاح.

ـ ابداً ، وكم كنت اتمنىٰ ألا يكون لديك هذا الاستعداد حتىٰ وأنت تلقي محاضرتك .

ـ ها قد عدنا من حيث بدأنا . .

ـ يا أخي . . إن اعلانك بأن القرآن قد ندد بالإعراب هو كإعلاني بأنه ندد بالمصلين. . ولو أنك تريثت قليلاً وواصلت تلاوة الشاهد القرآني لغيرت وجهة نظرك تماماً كما أن عبارة ﴿ ويلٌ للمصلين ﴾ لا تعبّر عن معنى نهائي إلاّ بعد ربطها بما يليها . . بأن الذين ينصب الويل عليهم هم أولئك الذين يسهون عن الصلاة . . وشتان . . إنها « لعبة » الاقتطاع القسري للشاهد . . انتزاعه من بيئته وسياقه لكي يخدم وجهة نظرٍ ما قد تكون مغايرة تماماً للهدف النهائي من إيراده . .

فإذا كانت اللعبة متعمدة وصمت بالخبث والمكر ، وسمي صاحبها بالخبيث الماكر ، وإذا كانت غير متعمدة وصمت بالجهل والغفلة وسمي صاحبها بالجاهل الغافل ، وإني أزبأ بك أن تكون احدهما . .

لم يجبني الرجل . . ومضىٰ لا يلوي علىٰ شيء !!

وجهة نظر

الذي يقرأ بعض الروايات ويشاهد عدداً من المسلسلات التلفزيونية يعجب لهذا التقابل المفتعل بين المحامي والمدعي العام ، وكأنه قد كتب عليهما أن يقف احدهما قبالة الآخر وكأنهما خصمان أبديان لا يمكن أن يلتقيا .

حتى لقد اصبح من قبيل المسلّمات - الخاطئة - أن ينفد أحدهما ادلة الآخر ويهدم كل حججه حتى ولو كان بعضها على الأقل مصيباً ، وحتى ولو كان أحد الطرفين مقتنعاً - في باطنه - بوجهة نظر « خصمه » أو « غريمه » في هذه المسألة او تلك .

يقوم المدعي العام لكي يلقي خطابه التقليدي بلهجة هجومية تحمل مغزاها الواضح ، وينهض المحامي لكي يستغرق نفسه وموكّله في مجابهة دراماتيكية مع المدعي العام .. و؟يستفز هذا بين الحين والآخر فيقف ويطلب الأذن من الحاكم ويطالبه بوقف المحامي عن الاستمرار في طرح اسئلته الاستفزازية .

والحاكم، الذي يتحتم أن يكون رحى الدائرة ومركز القضية ،

يدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، ويتدخل بين لحظة وأخرى للتخفيف من حدة الصراخ وعنف اللكمات المتبادلة بين المدعي العام والمحامي ، أو لوقف تدهور الموقف اكثر مما يجب ، أو لتحقيق نوع من التفاهم بينهما .

والمتهم يعتقد منذ اللحظة الأولى أنه يجابه خصماً لدوداً ، متمثلاً بشخص المدعي العام ، وأن محاميه إن قدر على التفوق عليه واكتساحه فقد ربح القضية ونجا من العقاب !

والمشاهدون يتابعون الأمر باهتمام بالغ رغبة في الكشف عن الحقيقة . حيناً ، واندفاعاً - حيناً آخر - بنوع من الفضول، والتشفي - ربما - بهذا الرجل أو ذاك من المتنازلين في الحلبة، المدعي العام أو المحامي .

الا يقتضي منطق العدل نفسه تقليدا إجرائيا آخر غير هذا التقليد ذي الصيغة الخاطئة ؛ تحوّل الطرفين معاً ، المدعي العام والمحامي ، الى رجلي بحث عن الحقيقة ، جنباً إلى جنب مع الحاكم ، ليس بالصراع وتبادل اللكمات ، ولكن بالتفاهم والتعاون وبذل الجهد المشترك ، الجهد المخلص الذي يعتمد على الأساليب الموضوعية للتوصل إلى الحقيقة المغيّبة عن الأنظار؟

صحيح أن المحامي مكلف ابتداء بالدفاع عن المتهم ، وصحيح أن المدعي العام مكلف ابتداء بالدفاع عن الحق العام . ولكن من قال بأن هذه الصيغة مسألة أبدية ، أو أمر مقدس ، لا يمكن بحال تجاوزه حتى ولو اقتضى الحق والعدل نفساهما ذلك؟

ألا يمكن أن يعين المحامي المدعي العام في جانب ما من المسألة ،

يجد بين يديه من الوثائق والوقائع والمستندات ما يؤكدها ويزيدها إضاءة ، وأن يفعل المدعي العام الشيء نفسه ، إذا كان التصرّف في كلتا الحالتين سبيلاً للوصول الىٰ الحقيقة سواء كانت لصالح المتهم أم لصالح الحق العام ؟

قد يقول قائل إن مهمة المحامي تكمن أساساً في انقاذ المتهم من التهمة التي رمي بها حتىٰ وإن كان قد اقترفها فعلاً ، وفي اخفاء كل الأدلة التي تدينه ، والتفنّن في تزييفها، وتحويلها إذا اقتضىٰ الأمر الىٰ ادلة نفي . وبالمقابل يجد المدعي العام نفسه مسوقاً برد الفعل، للفعل الخاطىء نفسه ، الىٰ التشبث بموقفه ، والسعي بكل الأساليب للإيقاع بالمتهم حتى ولو وقع في يديه من الأدلة والإثباتات ما ينفي عن المتهم التهمة التي الصقت به أو يشكك بها علىٰ الأقل . وهو ـ أي المدعي العام ـ يحسّ في طبقة ما من وعيه أنه يجابه المحامي وحججه ويسعىٰ للتفوق عليه ، وإلاّ فهي الهزيمة التي لا تشرفه بحال .

والجواب هو أن المعضلة تكمن في الصيغة الإجرائية الخاطئة ، في أساس هذه الصيغة القائمة منذ عهد بعيد ، في النزعة المنفعية الصرفة التي تدفع بالمحامي ـ أحياناً ـ الىٰ تنفيذ مهمته دون نظر إلىٰ الوازع الاخلاقي ودون اكتراث للحقيقة النهائية .

وهكذا نجد كيف تكون الممارسة القضائية في الإسلام ، برؤيتها الإيمانية بمرونتها واخلاقيتها وانفتاحها ، والتزامها بالقيم الخلقية ، وتلهفها علىٰ الحقيقة ، وصيغها الإجرائية غير المقفلة . . نجد كيف تكون هذه الممارسة البديل الصحيح ، المقنع ، لهذه الخطيئة التي تمارس في أروقة العدالة منذ زمن بعيد .

ونجد كيف أن فكرة (المحاماة (بصيغتها أحادية الجانب هذه ، هي بمثابة تقليد قدم الينا من أوربا المنفعية ، وإننا لسنا ملزمين البتة بالأخذ به لأنه ، في بعض اشكاله ، قد يخالف قيمنا وقناعاتنا وممارستنا بل قد يرتطم بها .

وكلنا يذكر ـ على سبيل المثال ـ ما كان يفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وغيره من رجالات الإسلام على مدار التاريخ ، مستعدين للتراجع عن قراراتهم النهائية في كل لحظة إذا تبين لهم وجه جديد من القضية قد يعنيهم على التوصل إلى الحق .

إنها المرونة التي تتجاوز التشنّج على الأحكام الأخيرة والتشبث بالإجراءات الخاطئة من اجل شيء أكبر بكثير وأهم بكثير . . إلا وهو الحقيقة . .

ويمكن للانسان أن يتشبث بأي تقليد ويتشنج عليه ـ إذا اقتضى الأمر ـ الاّ أن يأتي ذلك على حساب الحق والعدل . . تلك الأهداف العزيزة التي يتعشقها الكل ويزود عنها الجميع . .

الإيمـان . . تلك المنارة المضيئـة

يسيطر التشاؤم - احياناً - علىٰ حشد ليس بالقليل من المؤمنين ، وهم ينظرون إلىٰ معطيات العصر الراهن ومعادلاته تتحرك باتجاه مضاد للإيمان ، بدءاً من صيغ الدمار والتحلل الخلقي ، وانتهاء بالنظريات والمذاهب والعقائد التي ترفض الإيمان ، وتلغيه من الحساب ، تسندها في ذلك المؤسسات والنظم والحكومات .

وهم يقولون أن ضغوط التيارات المضادة للإيمان هائلة حقاً ، ساحقة بمعنىٰ الكلمة ، وهي تسعىٰ باصرار وحماس الىٰ جرّ المؤمنين كافة الىٰ هاوية التفكك والتحلل والإلحاد . .

ولكن هؤلاء ينسون أن الإيمان يمتلك من نقاط الجذب والقوة ، وعناصر التحصّن والصمود ، والقدرة علىٰ التأثير والكسب ، ما يجعله - بحق - يقدر علىٰ مجابهة تلك الضغوط المضادة ، يوازيها احياناً ، ويتفوق عليها احياناً اخرىٰ ويمضي ، من ثم الىٰ هدفه ، غير مكترث بكل عوامل الإعاقة التي تضعها في طريقه مغطيات العصر وفلسفاته ونظمه ومؤسساته وسلطاته ، جاذباً إليه باستمرار ، العناصر

الشابة ، مانحاً إياها الثقة والتوازن واليقين الذي ما حصلت على عشر معشاره وهي تتخبط هناك . .

وحقيقة « الآخرة » وما يرتبط بها من « بعث » و « حساب » ثم « عقاب » و « ثواب » لهي واحدة من أشد نقاط القوة والتأثير والجذب في بنية الإيمان .

وأنه لتقابل مؤثر محسوب لصالح الإيمان . . تقابل بين الخلود وبين دنيا فانية ، زائلة تؤكد الأيام تفاهتها ، وانحسارها ، وعدم قدرتها على منح السعادة الحقيقية الكاملة للإنسان .

تقابل بين النعيم والجحيم . . بين الجنة والنار . . بين رضا الله سبحانه وثوابه وبين سخطه وعقابه . .

والإنسان الذي يملك ذرة من ذكاء يجد نفسه إزاء هذا التقابل بين الأبدي والفاني ، والامتداد والانقطاع ، والنور والظلمة ، والله والطاغوت ، مندفعاً للاختيار الوقع الأول الذي يتحقق من خلاله بما لا يمنحه إياه الموقع الثاني المترع بالملذات العابرة الرخيصة ، المنصرمة والتي لا تخلف وراءها سوى التعاسة والمرارات .

وليس هذا من قبيل الكلام الذي يقال لكي تتعزّى به النفوس المتشائمة ، ولكنه التجربة المتحققة والواقع المشهود في كل زمان ومكان ، بل في عصرنا هذا الذي يتميز بحصاره القاسي لمواقع الإيمان ، ومطارداته العنيفة الشرسة للمؤمنين .

فبنظرة عابرة إلى الجوامع والمساجد ، عبر واحدة من الصلوات الخمس ، يمكن للمرء أن يلتقي بحشود من هؤلاء الذين تجاوزوا

مواقعهم الدنيوية ، رغم بهرجتها وإغرائها ، وآووا اخيراً إلىٰ حظيرة الإيمان . .

كيف ، ولماذا ، وهم بعد في عزِّ الشباب حيث يخيل للانسان ان الدنيا لا تزال بعد تعد بالكثير ، وأن التفكير بالآخرة لم يأن أوانه بعد ؟

والجواب يكمن ، ببساطة ووضوح يصلان حدَّ التألق ، فيما يملكه الإيمان بمواجهة تحلّل العصر وضياعه ، وفيما يقدر علىٰ تقديمه في دنيا أخذت تقدم هي الأخرىٰ الكثير ، بعد أن امدتها الحضارة المعاصرة بألف فرصة وفرصة لتقديم هذا الكثير .

والحق ان الإيمان يثبت يوماً بعد يوم أنه لا يقل قدرة عن العطاء ، إن لم يفق ما تقدمه الدنيا ، وكل الذين يتذرعون بها لوقف حركة الإيمان في العالم .

إن زمننا الحديث ، رغم فرصة ومتعة وملذاته ، ورغم الأردية والديكورات المثيرة التي يتقدم بها للإنسان كي يضلّه ويغويه ، فإنه يسلط في الوقت نفسه من الضغوط التي تتميز بالعنف والقسوة ما يستلّ من الإنسان كل فرص السعادة ويسوقه إلىٰ التمزق والتفتت والدمار .

ويجيء الإيمان لكي يعد الحيارىٰ والضائعين باسترداد توحدهم المفقود ، ولكي يقدم لهم ـ فيما يقدمه ـ التوازن والأمل والاطمئنان واليقين . .

يجيء لكي يفرمل اندفاعهم المجنون فلا يتهافتون كالذباب علىٰ

كل ذي لزوجة ويموتون هناك متخمين، ضائعين . . لكي يقول لهم هذا حلال وهذا حرام فيحفظ طاقاتهم ، ويكفّهم عن اللهاث الأعمى وراء الملذات . .

يجيء لكي يقودهم ثانية إلىٰ حمىٰ الله . . إلىٰ امنه ومحبته وخشيته ورضاه ، فيمنحهم الفرح الحقيقي ثانية إلىٰ حمى الله . . فيمنحهم الفرح الحقيقي والسعادة التي تعلو علىٰ السعادات .

وإنها - بحق - لنقاط جذب مشعة لا يمكن لقوة في الأرض ان تطفيء نورها المتألّق ، أو تعتّم علىٰ جمرها المتوقّد .

وبمواجهة الف من ضغوط العصر الحديث ، بمواجهة كل عوامل الأرتداد ، والتحلل ، والإلحاد ، يقف الإيمان منارة مضيئة وسط ظلمة العالم لكي يدل الحيارىٰ والتائهين علىٰ الطريق .

ولحسن الحظ فإن غريزة حماية الذات ، وتطمين المستقبل البعيد ، لا تزال ، وستظل ، تعمل عملها في سلوك الإنسان .

وهي التي تقول له إنك إذا اردت الا تضيع الىٰ الأبد ، فعليك بالمنارة التي علىٰ هدي ضوئها المتألّق تنجو من الهلاك !

الوقوف متحدين مع الله

فرق كبير بين الوقوف متحدين مع الله وبين الوقوف في تحدٍّ معه جلَّ جلاله؟

الأديان السماوية جاءت لكي تضع الإنسان والبشرية في الحالة الأولىٰ والمذاهب الوضعية ، في اغلبها ، استهدفت وضعها في الحالة الثانية .

والحالة الأولىٰ تعني بوضوح ربط أسباب الإنسان الفاني بالخلود ، ومدى رؤيته لكي تكون بالمدى الذي يليق به كان ومنحته القدرة المتفوقة المستمدة من ارادة الله ، ووضعه في حالة وفاق مع سنن العالم ونواميس الكون والوجود ، ولم شتات نفسه وتمكينه من التحقق بالوحدة والإنسجام ، واستئصال بذور السلبية واليأس من اعماقه ودفعه إلىٰ ساحة العالم مطمئناً ، متفائلاً ، فاعلاً وسعيداً . .

والحالة الثانية تعني ـ بوضوح كذلك ـ تقطيع الأسباب بين الإنسان وبين السماء وتضييق الخناق علىٰ رؤيته إلىٰ المدىٰ الذي يحيله الىٰ ما يشبه الحشرات التي لا تعرف غير تطمين حاجاتها الغذائية ، وتمتين مساكنها كي لا يقتلعها البرد والجوع . .

وتعني الحد من قدراته الفاعلة من خلال وضعه في حالة تضاد وتصادم مع سنن العالم ونواميس الكون والوجود .

وتعني تدمير توحّده النفسي وائتمانه الذاتي ، وشلّه بعوامل اليأس والسلبية ، ودفعه إلىٰ العالم خائفاً ، قلقاً متشائماً ، مشتتاً وتعيساً . .

فرق كبير والحق يقال . . ولن تغرّنا المظاهر الخادعة التي توحي ، اليوم علىٰ وجه الخصوص ، بانحسار المؤمنين علىٰ كل المستويات ، وانتشار اتباع المذاهب الوضعية وتمكنهم في الأرض .

فما هي الا القشور التي تحجب العفن والتفكك والفساد الذي ينحز في الداخل وتغطي علىٰ القلق والخوف والتمزق واليأس الذي يحكم قبضته علىٰ خناق الإنسان الذي لم يقدر علىٰ تجاوز الكفر صوب الإيمان .

وهؤلاء « الاتباع » هم الذين يقولون هذا ويعيدون فيه القول دراسات وابحاثاً وكتباً وتقارير ومناقشات وندوات وخطباً . . وهم ليسوا بالناس العاديين ولكنهم زبدة المجتمعات وطلائعهم المتفوقة عقلياً ومن ثم شهاداتهم تحمل قيمتها ابتداء . .

وليس هنا بطبيعة الحال مجال استعراض هذه الشهادات، ولكننا نشير إليها مجرد إشارة للتدليل علىٰ صدق المقولة التي تصدّرت هذه الكلمات .

إن ثمة خسارة كبيرة تلحق بالإنسان عندما يختار ان يكون في وضع المتحدِّي لله سبحانه . . طبعاً فإن الله جلَّ جلاله لن يضيره أن تقف

البشرية كلها متحدية إياه ، ولن يزيد في ملكه أن تقف البشرية كلها متحدة معه !!

والحديث القدسي الشريف واضح الدلالة في هذا المجال ﴿ . . يا عبادي إنكم لن تبلغوا خيري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو إن اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل في البحر ، يا عبادي انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم أوفيكم إياها . . ﴾[1] .

ولكن الربح والخسارة إذا جاز لنا أن نستخدم مصطلحات التجارة ستلحق بالإنسان نفسه .

ومن أجل الا يضيع الإنسان وينحسر نفسه ، بل من اجل الا يخسر دنياه قبل آخرته ، جاءت الأديان لكي تدلّه على الحقيقة وتقوده عبر الطريق الطويل . وكان الهدف النهائي لهذه الأديان جميعاً ومحصلتها الأخيرة أن تحرر الإنسان من قبضة الأرباب والكهنة والطواغيت الذين يسعون من خلال وضعه في حالة تحدٍ مع الله إلى استعباده ، ومن ثم تدميره كي يغدو أداة طيعة في أيديهم ، ووسيلة مجرد وسيلة ، لتطمين مصالحهم ونوازعهم .

جاءت الأديان لكي تحرره ، وتعيده الى الوضع الصحيح العادل

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر : صحيح مسلم باب التحريم الظلم ٤/١٩٩٤، ١٩٩٥ .

المنبثق عن طبيعة وجوده في الأرض ومهمته في العالم ؛ الوقوف متحد مع الله ، مع تعاليمه ، مع سننه في العالم ، مع نواميسه في الكون والوجود .

وحينذاك يتحقق الإنسان بالتوافق المنشود مع الخلائق والموجودات وقبل ذلك يتحقق بالتوافق المرتجى مع ذاته ، ومع غيره من بني آدم علىٰ مدار الأزمنة وتغير الأماكن . .

وحينذاك يكون بمقدور الإنسان ليس أن يحيا سعيداً فحسب ، وليس أن يفعل المعجزات فحسب، بل إن يضمن الآخرة وهو الهدف الأسمىٰ ، لأنها الحقيقة المطلقة التي تعلو علىٰ نسبيات الأرض ومتغيراتها . .

طريق واحد مستقيم هو الصراط . . وانسان متوحد ، مطمئن سعيد ، مترع انسجاماً وتفاؤلاً وقدرة علىٰ الإبداع والعطاء . .

وتوافق فذ بين بني آدم وبين ما يحيط بهم ويعايشهم من خلائق وسنن وموجودات . . .

والهدف واحد هو الله .

ذلك - أيضاً - معنىٰ أن نقف في تحدٍّ معه سبحانه . .

إنه جلت قدرته يستطيع بكلمة (كن) أن يقتلع الموقف الخاطىء ، لأنه الخالق ونحن المخلوقون ، وهو المالك ونحن المملوكون . . وهو القادر ونحن الضعفاء العاجزون .

لكنه سبحانه شاء أن يمنح الإنسان حريته التي تليق به وأن يعلمه الطريق ثم يتركه لكي يختار بنفسه .

ترىٰ هل قدر الإنسان علىٰ اجتياز الإمتحان بنجاح !

كتب للمؤلف

ط - بحوث تاريخية

١- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز - الطبعة التاسعة - مؤسسة الرسالة - بيروت .

٢- عماد الدين زنكي - الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة .

٣- دراسة في السيرة - الطبعة العاشرة - مؤسسة الرسالة - دار النفائس .

٤- الحصار القاسي . . ملامح مأساتنا في أفريقيا - الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة .

٥- التفسير الإسلامي للتاريخ - الطبعة السادسة - دار العلم للملايين - بيروت .

٦- نور الدين محمود؛ الرجل والتجربة - الطبعة الأولىٰ - دار القلم - دمشق .

٧- الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام . . أضواء جديدة علىٰ المقاومة الإسلامية للصليبين والتتر - الطبعة الأولىٰ - مؤسسة الرسالة .

٨- في التاريخ الإسلامي ؛ فصول في المنهج والتحليل - الطبعة الأولىٰ - المكتب الإسلامي - بيروت .

٩- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي . . عصر ولاة السلاجقة في الموصل -

الطبعة الأولى ـ مكتبة المعارف ـ الرياض .
١٠ـ ابن خلدون إسلامياً ـ الطبعة الثانية ـ المكتب الإسلامي .
١١ـ دراسات تاريخية ـ الطبعة الأولى المكتب الإسلامي .
١٢ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ـ الطبعة الأولى ـ دار الثقافة ـ الدوحة .
١٣ـ تحليل للتاريخ الإسلامي . . إطار عام ـ قيد النشر ـ دار الثقافة ـ الدوحة .
١٤ـ المستشرقون والسيرة النبوية . . بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر « مونتغومري وات »ـ قيد النشر ـ

د ـ بحوث إسلامية

١ـ لعبة اليمين واليسار ـ الطبعة الخامسة ـ مؤسسة الرسالة .
٢ـ تهافت العلمانية ـ الطبعة السابعة ـ مؤسسة الراسةل .
٣ـ مقال في العدل الإجتماعي ـ الطبعة الثالثة ـ مؤسسة الرسالة .
٤ـ مع القرآن في عالمه الرحيب ـ الطبعة الثالثة ـ دار العلم للملايين .
٥ـ آفاق قرآنية الطبعة الثانية ـ دار العلمللملايين .
٦ـ كتابات على بوابة القرن الخامس عشر بالإشتراك ـ الطبعة الأولى ـ دار العلمك ـ الرياض .
٧ـ متابات إسلامية ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الحرمين ـ الرياض .
٨ـ مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة الرسالة .
٩ـ العلم في مواجهة المادية . . قراءة في كتاب حدود العلم ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة الرسالة .
١٠ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة الرسالة .

١١-حول إعادة تشكيل العقل المسلم - الطبعة الثالثة - مجلة الأمة - الدوحة .
١٢- الرؤية الإسلامية - دار الثقافة قطر .
١٣- حوار في المعمار الكوني ويقضايا إسلامية معاصرة - الطبعة الأولى - دار الثقافة - الدوحة .
١٤- أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار - الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة .

ج - اعمال أدبية

١- المأسورون « مسرحية ذات أربعة فصول » - نافد - دار الإرشاد - بيروت .
٢- في النقد الإسلامي المعاصر« نقد » -الطبعة الثالثة -مؤسسة الرسالة .
٣- فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر « نقد » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .
٤- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي « نقد » - الطبعة الثانية - مؤسسة الراسةل .
٥- جداول الحب واليقين « شعر » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .
٦- رحلة في المصير « شعر » - الطبعة الأولى - مؤسسة السالة .
٧- معجزة في الضفة الغربية « مسرحيات ذات فصل واحد » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .
٨- خمس مسرحيات إسلامية « ذات فصل واحد » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .
٩- محاولات جديدة في النقد الإسلامي « نقد » - الطبعة الأولى -مؤسسة الرسالة .

١٠- الشمس والدنس « مسرحية ذات أربعة فصول » - الطبعة الثانية - دار الاعتصام - القاهرة .

١١- الأدب في مواجهة المادية « دراسة » - قيد النصر.

١٢- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي « دراسة » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .

١٣- الاعصار والمئذنة « رواية » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .

١٤- المغول « مسرحية » - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .

الفهرس